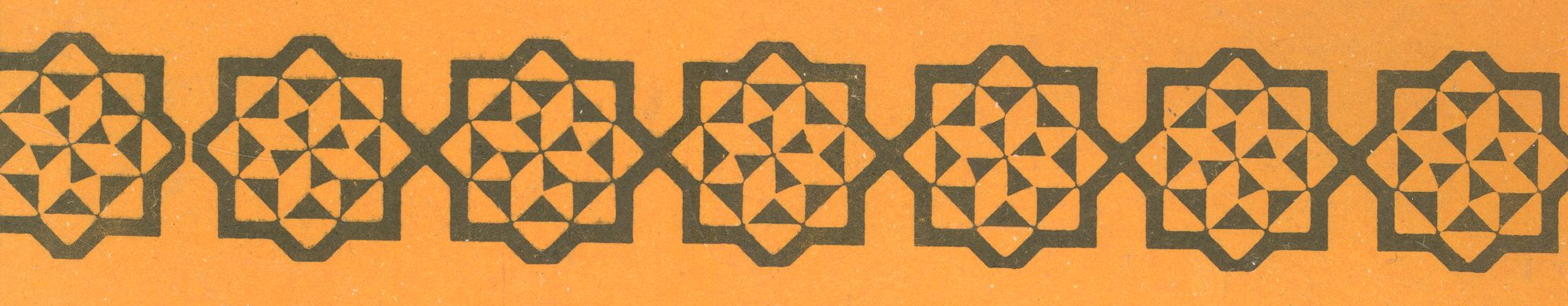
أمين الخولي



من هدى القرآن

مشكلات حياتنا اللغوية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

أمين الخولي

الأعمال الكاملة

مشكلات حياتنا اللغوية

مشكلات حياتنا اللغوية

بقلم الأستاذ
أمين الخولى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحـــــــة

هذه محاضرات عن مشكلات الحياة اللغوية لمتكلمى العربية ..

وإنه للحديث الذى تصغى إليه أفئدة من تجرى ألسنتهم بهذه العربية فى صورة ما .. وهو عند الذين تجرى فى عروقهم دماء العربية ، بلون ما ، حديث الحياة والأمل.

***

إنما الحياة اللغوية فاصلة ما بين حياة الناس والحياة فى سائر صنوف الأحياء .. لأنها الناطقية ، على أى معنى أردتها .. من لسان قائل .. أو ذهن فاهم . . فاللغة التى هى نشاط اللسان ليست ـ فى التقدير الحق ـ إلا تفكيراً .

وإذا ما كانت حياتنا اللغوية فاصلة ما بين حياتنا أناسىّ ، وحياة سائر أجناس الأحياء ، فإنها لكذلك مظهر لكافة حيواتنا الأخرى فى دنيا البشرية ، ومادة تشكيل كل نشاط ونتاج لقوى تلك الحيوات فينا ، وهى الوصلة الوحيدة بيننا ، للافادة من نتائج كل نضال لنا فى هذه الدنيا .

واعتبر ذلك بما شئت من علم ، أو عمل ، أو فن .. أو .. أو .. فلن تراه إلا تعبيراً وتعليما ، وتفاعلا وتعاوناً .. ووسيلته كله ، وأداته كله هى الإفهام والتفاهم بأقرب طرائقهما وهو الكلام .

***

وليس بالكثير ، ولا المبالغ أبداً أن تقول : إن آفات حياتنا فى جمهرتها

تعود إلى علل لغوية تصدع الوحدة .. وتحرم الدقة .. وتبدد الجهد ، وتعوق تسامى الروح والجسم ، والعقل والقلب .

ومن كل أولئك تكون كل محاولة إيجابية فى سبيل إصلاح الحياة اللغوية ، وإزاحة عللها هى المحاولة الأولى والكبرى فى سبيل سلامة الكيان الجماعى .. والشعور الذاتى .. والجد الحيوى .. والسمو العقلى والوجدانى .

***

وبعد .. فهذا القلم يؤمن بأن هذا العهد من حياتنا إنما هو عهد التأسيس والتصحيح، لمناهج التفكير ، تصحيحاً يجعل النهضة الفكرية تقوم على أساس متين ، من إدراك طبائع المواد التى ندرسها ، وكيف ننفى فيها ونثبت ، وكيف نصحح ما فى قديمها من الأخطاء ، وكيف ننتفع بالتقدم العقلى الذى بلغته الثقافة الإنسانية .. ولا بدع – مع هذا الإيمان القوى – أن يكون تصحيح المنهج اللغوى هو أول وأهم ما يعنى به هذا القلم . . فيحاول أن يبلغ فى هذه المحاضرات شيئاً من ذلك التصحيح المنهجى ، يرد الطلاب والباحثين إلى أصول سليمة للتفكير ، يلتقى عندها الباحثون ، ودعاة الإصلاح اللغوى فتتوفر جهود كثيرة ، تضيع فى جدل ، لا ينشأ إلا من اختلاط الاعتبارات الوهمية والتقاليد الوراثية ، ننسى معه الحقائق المنهجية .. ويحول دون المضى فى إصلاحات طال تأخرها .. ولم يعد الوقت يحتمل تأخيرها .. ولا الحياة تتحمل تعطيلها.

***

وكذلك نرجو ونأمل أن يكون الحديث عن مشكلاتنا اللغوية ، صحيح المنهج حيوى المنزع .. قوى الإيحاء ، إيجابى الأثر .. جرىء العزم .. واضح القول فى تصحيح المنهج ، غير متأثر بما شعرت به منذ اللحظة الأولى من خلط طلاب هذا المعهد بين العاطفة والحقيقة ، وميل إلى ستر الحقائق أو تلوينها بما يرضى العاطفة ، ويساير

أهواء يحسبون أن فى إشاعتها شيئاً من الأثر فى تشجيع أوضاع عملية أو سياسية يظنون أنها تخدم بهذه العاطفيات ، وينسون أن شر مايجنى على الحقيقة أن تكون خادمة لهوى ، أو جالبة لنفع ، مهما يكن فى تقديرهم كبيراً فإنه لابقاء له ولا حياة ، مادام لايقوم على حقيقة علمية ، صحيحة الأصل سليمة المنهج .. وحسبى هذه الإشارة المجملة دون تفصيل ولا تفسير .

وبالحقيقة — لابأى شىء سواها — تحل المشكلات اللغوية ، فى حياة المجتمعات العربية .

أمين الخولى

تشخيص

تحية وشعور :

سلام عليكم .. تحية العربية .. وعليها قصرها الإسلام ..

منذ ألقى إلى كتاب المعهد ، من بضعة أشهر : أن أتحدث عن قضايا اللغة العربية الحديثة اليوم ، وجهت نفسى إلى الموضوع ، ومضت فترة ليست بالقصيرة فإذا عنوان الموضوع فى رأسى حين أفكر فيه ، أو أقرأ حوله هو : مشكلات حياتنا اللغوية ، أو مشكلات العربية اليوم .. وليس هذا المعنى ببعيد عن عنوان المعهد له : قضايا اللغة العربية ، لأن القضايا تحوج إلى تقاض وتحاكم ، وتأييد حق ، وتكون حول مشكلات ليست سهلة الحل .. لكن كلمة المشكلة أبعد إيحاء ــ وأنسب لأهمية الحياة اللغوية .

أهمية :

مشكلات الحياة اللغوية فى المجتمعات التى تتكلم العربية هى - فى تقديرى - أبعد مشكلاتها غوراً ، وأعنفها أثراً .. فإنها تصيب هذه الأمم العربية جميعاً بظاهرة «الازدواج اللغوى» التى تجعلها تحيا ، وتشعر وتتعامل ، وتتواصل بلغة يومية ، مرنة ، نامية ، متطورة مطاوعة .. ثم هى تتعلم ، وتتدين ، وتحكم ، بلغة مكتوبة ، محدودة ، غير نامية .. لاتطوع بها الألسنة .. وتتعثر فيها الأقلام ..

وهذا « **الازدواج اللغوى** » **القهرى** : يصدع وحدتها الاجتماعية .. ويفرقها طبقات ثقافية وعقلية .. وبهذه الوحدة المرضوضة الواهنة تمارس الحياة العملية وهى خائرة التماسك ، فاترة التعاون ، إن لم تكن فاقدته .. فإذا ماعضها الواقع بأنياب

المنافسة ، وقست عليها الأحداث فشعرت بالهول وفزعت إلى شيء من إصلاح أمرها آدها التعلم ، وتعسرت عليها وسيلته العظمى وهى اللغة . فإذا هى تبذل الجهد المضاعف من مالها النزر ، ووقتها النفيس ، ولا تعود إلا بأيسر الفائدة .. وقدر تلاحق الخسائر ، وتتابع الأضرار حين تكون اللغة التى هى وسيلة كسب المعرفة ، قد صارت هى نفسها مادة صعبة التعلم ، سيئة النتائج ، يؤتمر لها كل حين ، ويلتمس لها العلاج كل موسم .. فإذا المرحلة الأولى ، من إنسانية الجماعة ، وهى التعليم الإلزامى مرحلة غير موفقة ، بسبب صعوبة تعليم اللغة ... وإذا مكافحة الأمية عمل صعب ، طويل سلمه ... وإذا كثرة الناس همل غفل ، لا يهيئون لممارسة نشاط عامل يسير الخطر ... ثم هم لا يعينون على أنفسهم فى تقبل إصلاح اجتماعى أو صحى . أو خلقى ، أو عملى ... لأنهم لا يقرءون فيستنيرون ويستجيبون لما يراد بهم من خير . وإذا الكثرة الكاثرة تحيا حياة تئود كل تقدم ، وتعوق كل نهوض ... بسبب من اللغة .

وانس هؤلاء ، وامض قدماً فى مراحل التعلم ـ لمن تهيأ لهم السير فيها ـ فإذا تعليم اللغة القومية غير موفق.. وإذا أدبها غير محبب ، وإذا النشء يذهب هواه بدداً ، فى آداب لغات أخرى .. إن قرأها .. أو إذا هو لا يرق له وجدان ، إذا ما أعوزته الملهمات الفنية .. ومن هذا يكون الركود الأدبى . وتكون أزمة الفن القولى فى نواحيه الفنية والعملية ، فللمسرح أزمة . وللصحافة أزمة .. وللاذاعة أزمة .. ولكذا وكيت أزمات ... لغوية كلها لا غير .. ولهذا وما إليه أشد الأثر فى عجز الأمة عن أن تركز عواطف أفرادها ، وتجمع قلوب أبنائها ، وتوجه هواهم إلى الأمل الموحد .. والمثل المشترك ... والغد الكريم ؛ فلن تستطيع شيئاً من ذلك إلا إذا ملكت

زمام حياتهم الوجدانية الفنية .. « وازدواج اللغة » أشدما يكون تعويقاً لها عن الظفر بشيء من ذلك .

وتناس الفن ، وما تكبر من أمره . ففي الناس من لم يستبن ذلك بعد .. وحدق في المدارس والتعليم .. فيها : أولئك المدرسون للمواد المختلفة لا يحسنون لغتهم ولا يحسنون الإبانة ، فهم عوام في شرحهم وتلقينهم ، وهم أشباه عوام في تأليفهم وعرضهم ، وهم لا يلقون لتلاميذهم وطلابهم حقائق نيرة بينة .. وليس ذلك فحسب بل هم يبرمون باللغة ويتأففون ممن يرجولديهم بياناً بها ، أوصحة تعبير ، فإذاهم يركزون في نفوس التلاميذ كراهية اللغة القومية .. إن لم أقل احتقارها .. وهم يملئون الصدور بما يخليها من الشعور الذاتي .. والإحساس القومي . وإذا الحلقة المفرغة تزيد ضيقاً ، وتعنف خنقاً .. وإذا الوحدة الإجتماعية تزداد تصدعاً كلما ازدادت الأهواء تفرقاً والأمزجة تبايناً ـ وكلما وهن المسالك المشترك من اللغة التي تصل النفوس ، وتربط القلوب ، حين تشكو ألمها ، وتعشق أملها وتوحد مثلها .. لأن الإزدواج اللغوى أشد ما يكون حائلا دون ذلك كله .

وبحسبك هذا طرفاً من بيان .. لا يتسع المدى لاجتذاب سائره ، وهو جد كاف للقول بأن الأزمة اللسانية ليست إلا أزمة اجتماعية عملية . وعلمية تعليمية .. وفنية حيوية .. وهي ببعض ذلك خليقة بأن تكون أزمة وطنية سياسية . تهز الكيان الاجتماعي كله .. وهكذا تكون قضايا اللغة العربية الحديثة في حياة الأمم العربية مشكلات ، وأكبر من مشكلات ، لو ساعف التعبير في غير سرف .. وما بذاته وما تبذله تلك الأمم في سبيلها من علاج واستشفاء يؤكد ذلك ويجليه .. كما سنرى .

وتقديرنا لذلك كله هو ما نرجو أن يدفعنا في هذه المحاضرات إلى المنزع العملى الإيجابى .. بعد المنهج اللغوى السليم المحرر .. فلنتقدم —

على ذكر من هـذه الأهمية ـ لنتحدث عن مشكلات حياتنا اللغوية ، أو قضايا اللغة العربية الحديثة .

خطـــة

ولقد يظن أن أبدأ سرد هذه المشكلات وترتيبها . . ثم تناولها واحدة واحدة فأقول مثلا :

إن من تلك المشكلات جمود هـذه اللغة الذى يحول بينها وبين الوفاء بمطالب الحياة المتجددة . ! فـكيف ترد إلى النماء . . ؟ وما وسيلة ذلك ؟ . .

ثم إن من تلك المشكلات فى طرائق استعمالها : أن أصواتها التى تطلقها حناجر أهلها تنقص بعض أصوات لأصحاب لغات أخرى ، كالبـاء الثقيلة ، والفاء الثقيلة ، وحرف العلة بين الواو والياء U ، والجيم المصرية وغيرها . . وهى بحاجة إلى تلافى هذا النقص لتتصل بغيرها من اللغات وتأخذ عنها خيراً يكون عندها . . فـكيف تفى بهذه الحاجة . ؟ ؟

كما أن من تلك المشكلات : أن أصواتها قد صورت بنقوش كتابية استقرت على طريقة صعبة ، تتعدد فيها صور الحروف ، وتختلف باختلاف مكانها من الـكلمة ، فهى فى الأول بصورة ، وهى فى الوسط بأخرى ، وهى فى الآخر بثالثة . . وهى متواصلة يأخذ بعضها بيد بعض حيناً أو هى متنافرة قد أزور بعضها عن بعض حيناً . . مما أجهد الصغير . . . وعسر القراءة . . . وأمض الطابع . . . وكثر صناديقه . . . فزادت كلفة الـكتاب . . إلخ ، فـكيف تصلح صور حرفها ! ! وهل تبقى هذه الحروف أو نستعير صور حروف أخرى أقل تـكثراً ، وأيسر تناولا ؟ ! !

ثم إن من مشكلات هذه العربية اليوم : أنها حين ترسم كلماتها المؤلفة من تلك الحروف لا يجرى رسمها على نظام نطقها . بل تخالف صورتها صوتها . فمن ملامحى

الصوت إلى أعلى ما يمضيه الرسم إلى أسفل ، مثل يسعى وهدى . ومنه ما يذهب مع صوته ، مثل دعا وعصا . . ومنه ما يركب فيه حرف حرفا ، كالهمزة ، وتختلف ركوبتها فهى ألف أو واو أو ياء . . أو حيناً تسعى ماشية وحـدها . . وغير ذلك مما أجهد الصغير . وعسر القراءة والكتابة . . وأمض الطابع . . بل أضجر الكبير الكاتب . . .

وكذلك من تلك المشكلات : أن بناء الكلمات من الحروف ليس بناء بمواد ثابتة متماسكة ، بل إن الحروف يعتريها من المرض والعلة ما يحول به لونها ، وتتغير حركاتها . . بل ما يغير كيانها وينكر معالمها ، من إبدال وتحويل ، وتصرف وتصريف ـ أجهد الصغير . . وسد الطريق . . أو أضجر الكبير فكيف تعلم ذلك كله ؟ أو كيف السبيل إلى شىء من تصرف فيه ؟ .

ثم هذه جملها إذا ائتلفت من كلماتها تتغير الكلم فيها ، ويخالف بعضها بعضا ، أو تختلف هى على نفسها وتتغير ملامحها ـ فمن الكلم ثابتة لا يظهر على سيماها شىء . . ومنها متغيرة بل متواثبة ، تمضى صعوداً إلى أعلى مرة وهبوطا إلى أسفل مرة ، أو تذهب إلى أمام ممددة أقدامها . . ولتلك الأوضاع أوصاف تلقينية ، فى صيغ تقليدية . . وتعليلات منتحلة .. أجهدت الصغير .. وآدت الكبير .. وعاقت الفهم .. فهل فى المستطاع أن يغير شىء من ذلك ! ! أولا ، فهل يخفف حتى يوفر العمر والجهد ، ويبلغ الغاية ، ويمد الحياة ؟ ! وكيف ؟ !

ولا يقف الأمر عند هذا بل يليه من القضايا أو المشكلات ما يتصل بمزاج اللغة الفنى ، وذوقها الجمالى ، وكيف نكسبه بنينا ، وكيف ندركه فى أسلافنا ، وهو لا يجرى مع ما نتنسمه من روح العصر فى تلك الأرجاء الفنية ؟ فكيف السبيل إلى وصله بالواقع ، وجعله شيئا يتمثله ناشئونا ، ويوائمون بينه وبين الذوق العام ، والحس السائد ؛ ويغذون به ذلك كله وينمونه ، ويعبرون عما يجدون منه ؟ !

فهل تكون الخطة أن نعد المشكلات على سبيل الإحصاء والتقصى ـ تلقينا وإخباراً ـ ثم نختارلها ترتيباً كهذا الترتيب السابق أو كسواه ، لنتقدم فنتناولها بالقول واحدة واحدة ، محاولين أن نبلغ من ذلك علاجاً عاملا ، فيه وقاء ، وفيه شفاء ؟

كان يظن أن يجرى الأمر على هذا ، وأن تكون تلك هى الخطة فى هاتيك المحاضرات ، لكنى أحسب أننى لو فعلت ذلك أ كون كطبيب المستشفى الأميرى . لا يتكلف فحصا ولا اختباراً ، فلا يكشف علة ، ولايحسن تشخيصا .. فهو لايهتدى فى دواء ..

وأين نحن من واجب الفحص ، والتحليل . والتصوير بالأشعة ، لتعرف منشأ المشكلة ، ومكان العقدة ، فيصح التشخيص ويفيد الدواء ؟ ؟

على مثال هذا نريد أن نفزع إلى « تاريخ مرضى لهذه العربية » نعرف فيه : كيف نشأها أهلها ؟ وعلى أى منهج أقاموا درسها ؟ وعلى أى أساس بنوا قواعـد علومها ؟ وهل كانوا فيما أخذوها وأخذوا أنفسهم أسوياء راشدين ، جارين على ما هدى البحث إلى صوابه ؟ أو كانوا على غير هذا السبيل ؟ وماذا خلفت تلك التربية ـ غير الرشيدة ـ من آثار فى بناء اللغة ؟ . . ثم ما وجه الرأى التجريبى الصائب فى إصلاحه ؟

ولا شك أن هذا التشخيص ، الفاحص ، غير التقليدى . ولا التقيني أهدى وأرشد ، فلنفزع إلى تحليل وتصوير يكشف لنا معالم حياة العربية ، وكبريات الخطوط فى سيرها ، وأمهات الأصول فى علومها ، وما الذى تشهد به معارف اليوم ، ومناهجه اللغوية حين تعرض عليها هذه الأسس ، وتستشف تلك المعالم ! ؟ وإذا ما كشفت عن نقص فى ذلك أو خطأ فبأى شىء نطب له ؟ وكيف ننتفع بمعارف الدنيا حولنا ، وتجارب الأمم قديما وحديثا ، ونتائج الدرس القديم الجاد ، فى هذا العلاج . . .

وإليكم بيانا يمهد لهذا كله . . .

عرض

هذه اللغة العربية لم نتلقها التلقى المباشر ، المشافه ، الممارس . كما يتلقى الوارث الرشيد ، أو الكبير السن تركة من سلفه ، كان قد شاركه فى التدبير لها ، والخبرة بها ، فإذ يصبح صاحب اليد عليها ، والكلمة فى تصريفها ، يصبح مطلق اليد ، بصيراً بالأمر ، يأخذ ويدع ، عن خبرة ، ويتصرف فى حرية وطلاقة وبنظر رشيد . . . كلا . . لم نتلقها هذا التلقى ، بل تلقيناها تلقياً غير مباشر ، ولا مشافه ، ولا ممارس ، كما يتلقى الوارث ، المحجور ، الصغير السن ، تركة من سلف له ، ما شاركه قبل فى أمرها ولا اكتسب شيئاً من الخبرة بها قبل هذا الانفراد .. فأصبح وليس هو صاحب اليد عليها ، ولا الكلمة فيها .. بل الأمر فى ذلك لوصى أقيم ، وولى أنيب . فهو الذى يدبر أمرها : يؤجر .. ويبيع .. ويشترى .. ويرهن . . . ولن تخلص تلك التركة إلى وارثها يوم يرشد إلا على حال لا عمل له فيها ، ولا ذنب عليه فى سوئها ، ثم لايد له بإصلاح أمرها فى يسر وسهولة ، إن حاول تخليصها مما قيدت به أو أدينت ، أو عطلت ..

وسبب هذا الذى وصفنا من حالنا وحال هذه اللغة العربية التى تلقيناها بها ، وتلقاها كذلك عشرات من الأجيال قبلنا إنما هو سبب تاريخى اجتماعى . تلخصه سيرة سابقة ، وحديث قديم .

ذلك هو : أن هذه اللغة قد عاشت فى مهدها من الجزيرة العربية ما عاشت من الزمن .. وشملها جميع ، فى عزة من أهلها ، حتى كانت الخرجة الكبرى والهجرة البعيدة المدى ، التى دفعهم إليها الإسلام ، إذ دعاهم إلى نشر دعوته وندبهم لإقامة دولته .. فخرجت اللغة مع آلاف أهلها ، الذين خرجوا إلى المشرق القديم ، وأقصى المغرب المعروف .. فتفرقت معهم اللغة أوزاعاً ومزقاً .. فما كانوا وكانت ــ حيث هم وهى ــ إلا كالشعرة أو الشعرات البيضاء فى الثور الأسود .. وكأنما ذوبوا فى هذه الدماء ، والألسنة ،

والأجناس التى خالطوها ، من أسود ... وأحمر . . وأصفر . .

وجعلت هذه العربية تتفاعل مع ما خالطت من لغات . . فلا تعطى فقط . . بل كانت تأخذ كذلك . . سنة الحياة فى اللغات والحضارات الغالبة والمغلوبة .

وكان يساندها فى ذلك الصراع حيناً من الدهر سلطان دولة قوية ، وامبراطورية واسعة ، موحدة أو كالوحدة دهراً ، فلما انحلت عقدة اتحادها ، وتوزعتها دولات مختلفة النمة ، منهـا عربية ، ومنها غير عربية ، ظلّ يساندها الإسلام بقوته المعنوية دهراً طويلا فى كل مكان حتى اليوم ، لأنها لغة كتابه ، ولسان ثقافته ... والسبيل الوحيد لمعرفته .

وغالبت العربية هنا ، وهناك ، وهنالك . . وفى هذا الغلاب الطويل ، والصراع المرير انتهى بها الأمر حيناً إلى ظفر واستقرار ، هنا وهناك . وحينا انتهى أمرها إلى هزيمة وتقهقر هنا وهنالك . . فخرجت من إسبانيا مثلا . وكادت تخرج من إيران ، وتركيا ، وما احتلته من أقاصى الشرق فى آسيا ، مما صار الآن من الجمهوريات السوفيتية . .

وهذا التذويب فى المزج الذى صادفه أهلها فى الواسع الفسيح من أقطار الأرض، وبين الملايين من الدماء المختلفة حرىٌّ بأن يخفف من كثافة مادتها ، وقوة تماسكها ، ويخلخل نسيجها منذ اللحظة الأولى التى بدأ فيها . . فيدخل عليها الضعف والوهن فى صوغها وتركيبها وبيانها ، إذ تفعل بها الألسن ما تفعل دائماً باللغى ، ولا مفر من وقوعه ، على ما تقرر سنة الوجود . . فبدأ فيها منذ أول الدهر ، وبدء الجولة الإسلامية المهاجرة تغير عاجل ، واضح . . وكان تطور مستقر متصل .

ولم يغفل أهلهـا منذ أول الأمر عن هذا الأثر ، بل هالهم أمره . . ولعنـاية بعقيدتهم ، أو عناية بقوميتهم ، أو لشىء من الأمرين جميعاً هبوا يحاولون أن يحفظوا على العربية تماسكها ، ويوقفوها التخلخل والتحلل ، ليظل لها من القوام ما تهدى به

إلى مراد الدين وغرض القرآن ، ومقصد المشرع ، وما إلى ذلك من أهداف تلك الرسالة ، التى اضطلع أولئك العرب بإبلاغها ونشرها .

جدّوا ليخلصوا جوهر العربية ويصفّوا معدنها ، ورأوا أن التماس ذلك لا يكون إلا عند من بقى من أهلها بموطنها ، فلا سبيل إلى شيء من هذه السلامة عند من ديف بالعجمة ، وذوب فى الاختلاط إلا أن يكون شيء يسير لا يقاس بما عند الخلص الذين على قطرتهم . . فبذلوا الجهد فى طلب المحفوظ من العربية فى جزيرتها .

وجمعوا ما شاء الله ، وشاء لهم النشاط الجاد أن يجمعوا . . وأيقنوا ــ فى الوقت نفسه ــ أن ما ضاع عليهم ، وأفلت من يدهم ، كثير بعد ما أمسكوا وحفظوا . . ولكن لا حيلة .

خرجوا إلى البادية حيث البقية الباقية من خالص العربية . . أو قدم عليهم من تلك البادية . أو استقدموا هم إلى حواضرهم ، من أهلها . من استقدموا . ليلقنوهم ما عندهم ، وليتلقوا منهم بالممارسة المشافهة ، التى هى طبيعة الأمر فى تلقين اللغات ، وأقرب الطرق وأسلها ، فى كسب اللغة الحية .

وما كان ذلك التلقى بالممارسة ليدوم أجيالا طوالا ، فما لبث الباقون بالبادية أن تغير حالهم ، وما لبث القادمون إلى الحاضرة أن لان جلدهم . . كما قالوا . . إلا ما يحكون ــ من نادر لا حكم له ــ عن أهل حيين باليمن ، ظلوا باقين على اللغة الفصحى من الجاهلية حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى ، لم يختلطوا بغيرهم ، من الحاضرة فى مصاهرة ، ولا يسمحون لغيرهم أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليال ، خوفاً على لسانهم . . وهم أهل قرار لا يظعنون عن منزلهم ، ولا يخرجون منه [1] ومن يدرى!

(١) هامش ص ٥ جـ ٢ من الخصائص ط دار الكتب المصرية ، نقلا عن القاموس ، وشرحه ومعجم البلدان ، لياقوت ، مادة « عكونان » .

ولما عزت الممارسة اللغوية ، والتلقى المباشر ، عن مشافهة ، فزعوا إلى الطريقة الثانية ، وهى المدارسة وكسب اللغة بالتعلم ، وهى طريقة تحتاج إلى القواعد والأصول ، والضوابط ، والأسس التى يراض بها متعلم اللغة ، فذهبوا يلتمسون هذه الخصائص ، وللمعالم اللغوية : والقوانين التعليمية .. ولستقرءوا من مجموعهم فى اللغة ما استقرءوا ، واقتبسوا مما حولهم ما اقتبسوا ، حتى قرروا من أصولها ما قرروا ، وألفوا فى ذلك ، وتدرج التأليف وتطور .. واتسع ونضج ، بل احترق بعضه بعد النضج ، كالنحو .. فكان لهم ــ المتن ــ وشرحه .. والحاشية على الشرح .. والتقرير و .. و . وكان علم العربية ، أو علومها ، المختلفة العدد على الزمن ..

وفى هذه المقررات ، ومن تلك القواعد نلتمس مواطن الداء . ومواضع الوهن ، إذا ما فحصنا تلك العلوم ، واختبرنا تلك المقررات ، لأنها هى سجلات الالتزامات .. والتصرفات .. التى أحدثها ذلك القيم خلال الدهر الطويل .. فقيد التركة ، وأسلمها إلى الخالفين مثقلة بما تم ، وتناقلوها جيلا بعد جيل ، على هذه الحال ، ومع تلك القيود والارتباطات التى مهما تفترض فيها حسن النية ، وطلب المنفعة فإنك لن تضمن تحقق ذلك دائماً . لأن المستوى العقلى والحياة الفكرية ، والخبرة العملية ، لأولئك القوام المتصرفين لم تكن لتسبق زمنهم وتتقدم دهرهم .. والإخلاص وحده لا يكفى فى هذا ولا يغنى .. ولم يكن فى الإمكان أبدع مما كان .

فى هذه التصرفات ، ومن تلك السجلات ، التى هى مقررات علوم العربية : من لغة .. ووضع .. واشتقاق .. وصرف .. ونحو .. الخ يتلخص التاريخ الحيوى ، والواقع المرضى ، الذى خلف فى تلك اللغة ما خلف مما أشرنا ــ فى الخطة ــ آنفاً إلى بعضه ، من ضمور وجمود فى هيكل اللغة .. أو نقص فى أصواتها .. أو عناء يحدثه تصوير تلك الأصوات أو .. الخ ما ذكرنا وما لم نذكر الآن ..

من نقص يحتاج إلى استكمال .. أو زوائد تحتاج إلى استئصال .. أو ضعف تعوزه مقويات .

فلنعرض هذه المقررات للتحليل ، فى مخابر المذاهج اللغوية المحدثة المدعمة بما بلغ الإنسان من ثقافة علمية تجريبية بعامة ، وثقافية لغوية بخاصة — وفى ضوء الأشعة النافذة ، من هذه المعرفة الإنسانية الطليقة المتطلعة نستطيع تشخيص مشكلات حياتنا اللغوية .

ولكن هل نتقدم للقيام بما يستطاع من ذلك التحليل ، والكشف ، لنتبين ما استطعنا شواهد التغير ، وظواهر الانحراف ؟ .. هو ما ينبغى بلا شك ، والخطة الرشيدة — على ما قدمنا — تمليه وتلزم به ؟ . فما هذا التساؤل ؟ وفيم الإستفهام ؟

ألا إنما أجريت الأسلوب هكذا لألفتك إلى أن هناك تشخيصاً سابقاً .. وتذاكر أخرى محررة .. وفى مثل هذا تقضى الخطة الحازمة ، أن نستفيد ما أمكنت الإستفادة من التشخيص السابق .. والتقارير الأولى ، والرسوم السالفة . وإلا كنا مفتاتين غير منصفين .. وهو ما لا نريده لأنفسنا ، ولا نرضاه .. فلننظر فيما بين يدينا من : —

تشخيص سابق

قام به اخصائيون كبار ، متفردون لذلك ، قد منحتهم الدولة سلطاناً وتأييداً حين قوى شعورها بحاجة هذه اللغة العربية إلى المحافظة على سلامتها وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها . وملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر . فأنشأت منذ أكثر من عشرين عاما « المجمع اللغوى » وكما يقول أحد أعضائه : هو وحده السلطة التشريعية العليا للغة العربية (١) .. فلا بعد فى أن نعتبره معهد البحث الدقيق ، ونحاول الإنتفاع بتقاريره فى حال تلك العربية ، وعقد حياتها .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية — الجزء الثامن ص ١١٠ .

وقد نظر أعضاؤه فى شىء من خطوات ذلك التاريخ الذى أجملناه سابقاً ، وتبينوا مواضع الوهن فيها . وألقوا بآرائهم إلى سائر زملائهم ، فقبلوا ما قبلوا منها ، وناقشوا أحياناً بعضها ، وبما صارت هذه الحقائق موضع الاتفاق بين الهيئة التشريعية فى اللغة العربية سأعرض عليكم هذه التقارير مشاراً إلى مكانها فى مجلة مجمع اللغة العربية ، غير معزو فيها القول إلى شخص ، لأنه مقول الجميع .

وإليك بعض هذه التقارير قبل قولنا نحن فى شىء . ونبدأ بعرض فحصهم لعملية جمع اللغة قديماً . لأن هذا الجمع أساس لكل دراسة .. وقد قيل فى نقد هذا الجمع أكثر من مرة قصداً على نحو ما نراه فى مجلة المجمع ــ العدد السادس ص ٨٧ وما بعدها والعدد التاسع ص ٣٧ وما بعدها ــ عدا متفرقات مسوا فيها موضوع جمع اللغة عرضاً وتبعا ..

وكان نقدهم جمع الأولين للغة بأشياء مثل :

١ ــ بدائية عملهم فى الجمع ؛ ونص العبارة فيه . « إنما كان عملهم فى الجمع بدائياً غير منظم ؛ منهم من يلتقطون ما يسمعون من الألفاظ ويدونونها ، وعيب هذه الطريقة أنهم لم ينصوا فى الأعم الأغلب على القبيلة الواحدة التى جمعوا منها ألفاظهم ، بل يهتمون بالكلمة التى سمعوها ويدونونها حيثما اتفق . ولذلك نرى نقصاً كبيراً فى هذا الجمع فأحياناً نجد مصدراً ولا نجد فعلا ، وأحيانا نجد مفرداً ولا نجد مثناه ولا جمعه ، وأحياناً نجد الجمع ولا نجد المفرد وهكذا (١) .

ويقابلون بين جمع أسلافنا للغة وما يفعله العصريون الآن فيقولون :

---

(١) مجلة المجمع اللغوى العدد ٨ : ٢١٠ و ١١ مقال : جمع اللغة للمرحوم الأستاذ أحمد أمين . . ومثله فى عدد ٧ ــ ٣٥٢ . مقال : مدرسة القياس فى اللغة للكاتب نفسه . ثم مثله فى عدد ٩ : ٣٨ ــ مقال أسباب تضخم المعجمات العربية للكاتب أيضاً .

« والمدنيون الآن يؤلفون الجميات ، ويعدون الخرائط والاستمارات ويحددون الأسئلة التى يريدونها » .. فيسألون مثلا : ما تقول بلادكم فى كيف حالك ؟ ويقيدون فيها اسم البلد ثم يستنتجون من ذلك نوع الناس الذين ينطقون بهذا القول ، ويستخرجون من ذلك الدلائل اللغوية والاجتماعية ويرسمون الخرائط وفقاً لهذه الاستنتاجات ، فتكون هذه العملية عملية علمية (١) .

ولعلك تقول فى التعقيب على هذا النقد لعمل الأولين : إنه تعوزه روح الجد ، لأن طبيعة الحياة لم تكن تحتمل ظهور هذه الطريقة العملية العلمية إلا فى هذا العصر ، بعد أن تهيأت لها الأسباب .. ولا ذنب لهؤلاء الأولين فى أنهم عاشوا منذ بضعة عشر قرناً . وعاشوا فى أزمة اجتماعية لغوية هددت العربية فسارعوا إلى جمعها ـ كما أمكن وكما لم يكن يمكن سواه ـ بجهد مشكور ، قدره الناقدون قبل تقدمهم بهذا النقد ، المتبغدد .

ومن نقدهم اليوم للجمع أيضاً :

٢ ـ نقد برنامجهم فى الجمع .. وفى هذا يقولون : « .. وكان برنامجهم ألا يأخذوا عن حضرى قط ، ولا ممن خالط الحضر ، من أهل التخوم ، وكلما أمعنت القبيلة فى البداوة كانت أولى بالنقل عنها كقيس وتميم وأسد ، ثم ، هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين» .. ولكن موضع الخطأ فيهم أنهم قرروا أن اللغة العربية ليست إلا هذا الذى جمعوه . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه النظرة أنهم يريدون ألا يستعمل الناس أيام الدولة العباسية البالغة مبلغاً عظيما من الحضارة إلا ما كان يستعمله هؤلاء البدو فى معيشتهم البدوية ، ومحال ذلك ، لهذا رأينا اللغة غنية غنى مفرطا فى أدوات البدو ، ومعيشة البدو ، وفقيرة جداً فى حاجات المدنية ، ولهذا اضطروا هم أو غيرهم بجانب

---

(١) مجلة المجمع ٨ / ٢١١

عملهم هذا إلى التعريب بعد أن أعرضوا عنه نزولا على حكم الطبيعة . وتطور العمران ، وخلطوا ما أخذوه عن القبائل بما عربوه عن الأمم المتمدنة ، فأضاعوا بذلك القاعدة الأولى التى رسموها لأنفسهم ، وهى الأخذ عن العرب الخلص فقط ، ولو كانوا أدركوا هذه النتيجة لسمحوا لأنفسهم من أول الأمر بالأخذ عن القبائل التى اختلطت بالعجم ، فهم على الأقل أولى من العجم الصرف الذين عربوا عنهم [1] » .

* * *

وقد يوردون هذا النقد فى عبارة أخرى ملخصة لا بأس بأن تسمعها وهى :

« . . وتحرجوا – أى الجامعون للغة – من أن يأخذوا اللغة عمن جاور الحضر من قبائل العرب ، إذ كانت وجهة نظرهم أن يأخذوا اللغة ممن صفت لغتهم ، وبعدت عن الدخيل ، وكانت أمامهم وجهة نظر أخرى محترمة أيضاً ، وهى أن يأخذوا ممن اختلط بالحضر فإن لغتهم أوسع . وألفاظها قد رققتها الحضارة » [2] .

فهل حقاً نرى هاتين الوجهتين للنظر محترمتين فى سبيل الغرض الذى من أجله كان هؤلاء الأولون يجمعون العربية ، وهو تداركها فى ألسنة الخلص قبل أن تغيرها الحضارة بترقيق وسعة ! ! إنهم كانوا يجمعونها ليجنبوها هذا الترقيق والتوسيع . . ثم لا عليهم بعد ذلك أن يعربوا هم أو غيرهم فيقدموا للحياة حاجاتها ، ويضيفوا إلى جانب الفصيح الأصيل ، الذى حفظ جوهر العربية وروحها ماعربوه هم ، فأكسبوه تلك الروح العربية ، وأعطوه الصورة العربية ، بعد ما عرفوا هذا كله ، واستشفوه مما جمعوه من خالص العربية ، فى لسان خلص أهلها ! !

وهم لم يضيعوا بهذا التعريب ولا بجمع الألفاظ الجديدة قاعدتهم الأولى التى رسموها

---

(١) مجلة المجمع اللغوى عدد ٦ / ٨٧

(٢) المصدر السابق عدد ٨ ص ٢١٠

لأنفسهم قط ، بل لو أخذوا من أول الأمر عن القبائل التى اختلطت بالعجم لأنهم على الأقل أولى من العجم الصرف الذين عربوا عنهم . . لو فعلوا ذلك لأضاعوا جوهر العربية وطابعها الذى يبغون الاحتفاظ به ، لاعتبارات دينيـة واجتماعية ! ! ! إذ سيكون ما جمعوه من هذا الخليط ليس هو العربية التى عرفها شعرهم المـأثور ، وفهم الموحى . .

وشىء أقرب من هذا هو أن التعريب عن العجم الصرف إنما يقوم على أساس هو اكساب كلم العجم روح العربية ، وحسها اللغوى ، وصورتها اللفظية . . وهـذا التعريب لا يخلط بين عربى وغير عربى ، بل يصبغ غير العربى بصبغة العربى ، الذى تميز ، وصين ، فيما جمع وحفظ بفضل القاعدة الأولى وهى الأخذ عن العرب الخلص فقط . . وأين وضع المعرب على هدى هذه القاعدة من العمل الخليط المشوه من عربى وغير عربى !! وهل كانوا يعربون قبل أن يعرفوا طابع العربية الصميم ، الذى يريدون إضفاءه على الـكلم الأجنبية ! !

لقد كان القوم أيقاظاً لما يفعلون ، وقد بينوه وأوضحوه بمثل ما قال « ابن جنى » فى الخصائص (١) عن ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر . . وزاده إيضاحاً بقوله فى موضع آخر (٢) من كتابه هذا : إن أهل الحضر يتظاهرون بينهم بأنهم تركوا ، وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة ، فهم يخلون بالفصيحة عن قصد وعمد . . . ومع مثل هـذه الحال لا يعمد القاصدون للظفر بجوهر العربية إلى مواطن الحضارة الواسعة اللغة ، الرقيقة العبارة ، ليأخذوا عنها العربية !!

***

وسواء أسلمت بهذا التعقيب على هذين النقدين أم لم تسلم فإن فرض اتجاه هذين النقدين لجمع الأولين ، وورودهما بكل قوة لا ينتهى إلا إلى نتائج يسيرة الأهمية ، هينة

(١) ج ٢ ص ٥ ط دار الـكتب المصرية .
(٢) ج ٢ ص ٢٩ .

الأثر كتضخم المعجمات القديمة ، واشتمالها على الحوشى المتروك ، والمترادف الذى لاضرورة له ، وليس ذلك بشيء فى جمود اللغة ، وعجزها عن الوفاء بحاجة الحياة اليوم وجهل الطريق إلى نمائها . ومحاولة رد ماء الحياة إليها .. وهو ما نفقده ، ونود الوصول إليه بأى طريق ، وأى جهد !! . ومن أجله ـ لا من أجل سلامة المعجمات ـ نبتغى هذا الفحص والتحليل .

***

ومن نقدهم اليوم لجمع الأقدمين :

٣ ــ عدم توافر الثقة بالرواية اللغوية ثقة تشابه ما توافر لرواية الحديث .. وأقول المهم فى هذا النقد ليست إلا ترديداً لشيء قاله الأقدمون أنفسهم ، فى غير موضع من علومهم الإسلامية كأصول الفقه مثلا .

والمجمعيون اليوم يوردون بعض هذا كاستشكال الوازى فى تفسيره (كذا) على وجود التواتر فى اللغة (١) لأنا نجد الناس مختلفين فى معانى الألفاظ ـ التى هى أكثر الألفاظ تداولا ودورانا على ألسنة المسلمين اختلافاً لا يمكن فيه القطع بما هو الحق ، كلفظ .. الله .. وكلفظ الإيمان والكفر ، والصلاة والزكاة .. فإذا كان هذا الحال فى هذه الألفاظ التى هى أشهر الألفاظ والحاجة إليها ماسة ، فما ظنك بسائر الألفاظ ! فإذا كان ذلك كذلك ظهر أن دعوى التواتر فى اللغة متعذرة .

« والإشكال الثانى : أن من شرط التواتر استواء الطرفين والواسطة ، فهب أننا علمنا حصول شرط التواتر فى حفاظ اللغة فى زماننا ، فكيف نعلم حصوله فى سائر الأزمنة ! » ..

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٨ ص ٢٠٩ وما بعدها . وبعض ما ورد هنا يتكرر فى المجلة أيضاً ـــ عدد ٩ ص ٣٨ ـــ من بحث أسباب تضخم المعجمات العربية للقائل نفسه إذ يقول : ومنها أن بعض جامعى اللغة لم يكن يتحرى فى جمعه ؛ بل يدون كل ما يسمع ، سواء سمع من ثقة أو غير ثقة .

« والثالث » : إنه اشتهر ـ بل بلغ مبلغ التواتر ـ أن هذه اللغات إنما جمعت عن جمع مخصوص كالخليل . . . . ولا شك أن هؤلاء ما كانوا معصومين ولا بالغين حد التواتر ، وإذا كان ذلك كذلك لم يحصل القطع واليقين بقولهم . . . .

وأما أخبار الآحاد فما انفرد بروايته واحد من أهل اللغة ، ولم ينقله أحد غيره ، قالوا : حكمه القبول إن كان المنفرد به من أهل الضبط والإتقان . . . وشرطه ألا يخالفه فيه من هو أكثر عدداً منه . . . وكان بعض اللغويين غير موثوق به ، كأن يكون غير عدل ، أو يروى عن صبيان ، أو عن مجانين أو كان راوية من أهل الأهواء . ولم يكن بعض الجامعين يتحرى الصدق ، بل كان يتيح لنفسه أن يضع . . . الخ .

وأكتفى بهذا التلخيص لنقدم لأقول :

إن ما يساق اليوم من هـذا الوجه الأخير قد أورده الأقدمون أنفسهم بأحسن ممـا أورده المصريون اليوم وضوحاً ودقة ، وما لخصناه هنا ، والأصل المطول له ، فى مطبوعات المجمع مأخوذ كله عن المزهر للسيوطى ـ ج : ١ ص ٦٨ وما بعـدها ط الأزهرية سنة ١٣٢٥ ـ وهو هناك منسوب للرازى فى الأصول ـ لا فى التفسير ـ كما أنه هناك أتم وأوفى وأصح !

ثم فى المزهر تجد الإجابة عن هـذه الإشكالات كلها ، كما تجد نقولا من مراجع أصولية أخرى .. فوق أنك تجد الفصول التى عقـدها السيوطى فى المزهر نقلا عن مؤلفين سابقين وفيها الوفاء بمناقشة هذه الإشكالات كلها ، كفصل معرفة ما روى من اللغة ولم يصح ولم يثبت .. وفصل معرفة المصنوع ـ وفصل معرفة الضعيف والمنكر والمتروك من اللغات .. وكلها فى الجزء الأول .. ثم فصل معرفة آداب اللغوى .. وفصل من سئل من علماء العربية عن شىء فقال لا أدرى .. وفصل التحرى فى الرواية ، والفرق بين مثله ونحوه .. وفصل كيفية العمل عند اختلاف الرواة .. وفصول أخرى تتصل بالرواية اللغوية وضبطها ، تقرؤها فى الجزء الثانى من المزهر أيضاً .

وفى كل حال فإن هذا النقد للرواية قد أورده الأقدمون . وأفاضوا فيه ، مع دقة وضبط فى الإيراد ، ثم تولوا الإجابة عنه بمثل هذه الإفاضة الدقيقة لضابطه ، فلا معنى بعد ذلك لإيراده مبتوراً ، والاحتجاج به إيراداً واستشكالا ، مع تجاهل نقضه وإبطاله ، والتغافل عما هناك من الدلالة المسهبة على التحرى الممكن فى الرواية .

وبعد كل هذا من عمل الأقدمين تجد اللغويين اليوم لا يقيمون وزناً لهذه الثقة بعدما عرفوا عن الطبيعة الاجتماعية للغة ، وهو ما لا نجد الفرصة للافاضة فيه هنا ، فنخرج عن العمل الأول فى بحث المشكلات اللغوية .

وهب هذا النقد صحيحاً ، والإشكال وارداً غير مردود فإنا لا نتكلف هنا الخوض فى شىء منه لأنه :

أولا : لايمس العقد اللغوية ، والمشكلات التى نطمع فى حلها ، كما أشرنا إذ أقصى ما فيه هو تحرج أصحاب الدين من تحكيم هذه اللغة غير الموثوق بها فى فهم القرآن ، وأخذ العقائد والشرائع منه .. وليست هذه مسألتنا فى شىء . ولا هى من مشكلات حياتنا اللغوية ، فى قرب أو بعد ..

ثانيا : إن الحياة اللغوية لم تتوقف لشىء من هذا منذ مئات السنين .. كما أن الحياة الدينية لم ترتب على هذا شيئاً فأصبح الوقوف عنده ، والاشتغال به لغواً لاطائل تحته (١) ولا مبرر لتناوله اليوم .

---

(١) النتيجة التى رتبت عليه ، كما هو وارد فى مجلة المجمع غير مرة — هى تضخم المعجمات العربية ، ومن الكاتبين فى مجلة المجمع نفسه من ينظر إلى الأمر غير هذه النظرة ، ومن ذلك ما تقرؤه — فى مجلة المجمع عدد ٨ ص ٣٧٦ — ونصه : إن العائشين اليوم فى عصر التمدين الراق على اختلاف ضروبه ليكرهون البادية ، ماقتين حياتها البدائية ، وهذا معقول لأن الرق غير متوقف على الرجوع إلى الوراء ولا على النزول إلى أسفل ، بل على التقدم دائماً لبلوغ الكمال قدر المستطاع ولهذا يود بعض معاصرينا إخلاء معاجمنا من كل الكلم التى يشتم منها رائحة الحياة البدوية حتى لا يبقى فيها سوى الالفاظ والتعابير الحضرية ، لا بل العصرية الحديثة ، وما يلزم أن نستخدم منها ، اندفاعا مع تيار التقدم المتواصل .

ثالثا : وهو الأهم ، أن هـذه الإشكالات القديمة .. إذا أريد الاشتغال بدفعها اليوم .. فإنما تدفعها حقائق منهجية ، ومعارف اجتماعية ، فى الحياة اللغوية تجعل مثل هذه الاستشكالات تتداعى .. وقد نقف عند شىء من ذلك فيما يلى ، حين نتحدث عن العقد اللغوية التى فى مقررات الأقدمين ، المخالفة لما عرف اليوم عن صحيح المناهج .

***

وهكذا لا يقدم لنا حتى الآن ذلك التشخيص السابق ــ ما يفيد فائدة جدية فى فى علاج مشكلات حياتنا اللغوية ، وحل قضايا اللغة العربية الحديثة ..

= هذا من حيث الروح والذوق المصرى ؛ أما نحن معشر المتخصصين للعجمية ، وما تشمله من اشتقاق ؛ وتأصيل وثنائية وألسنية فلا يسعنا إلا حسن الإشادة بفضل أولئك اللغويين القدماء ، الذين قاموا بالرحلات العلمية ، قاضين السنين الطويلة بين ظهرانى أهل الوبر ، فجمعوا لنا كل تلك المفردات البدوية الخالية منها الألسن السامية الأخرى التى لم تجمع وتدون مفرداتها إلا إبان بلوغ أربابها طور الحضارة ، ففقـد منها أغلب الأصول والرساس الأولية ، بمعانيها المادية المحسوسـة . وهذا هو الفضل العميم ، فضل اللغة العربية على شقيقاتها ، والدليل الساطع على قدم ألفاظها .» اهـ بلفظه ، من بحث الثنائية والألسنة السامية للأب ــ مرجى الدومينيكى ، الذى دعاه المجمع لإلقائه ؛ واستمع إليه وناقشه فى ١٩٥١/٥/٢٨

فحص

فيما رأينا من تقارير الفحص السابقة لم نظفر بنتيجة إيجابية فى تشخيص حال اللغة العربية .. إذ كان جو الملاحظة على حركة الجمع القديمة للغة جواً معجمياً ، لا يعنى إلا بتقدير ما كان لهذا الجمع من أثر فى حال المعاجم العربية من وجهة نظر عملية خاصة ليس لها أهمية كبرى .. فكانت زاوية النظر فى الملاحظة على هذا الجمع هى الزاوية الميتة فى النهاية . لأنها عنيت ، بل قصرت ، على عمل للرواة فات زمانه ، ولا سبيل إلى إعادة شيء منه مطلقاً ، ليؤدى على وجه آخر أتم أو أكمل ، فيؤدى ذلك إلى فائدة فى حياتنا اللغوية الآن أو بعد الآن ! !

وبذلك لم يتبين لنا من الملاحظات ، التى وردت فيما أسلفنا من قول أثر ما فى حياة اللغة متناً أو نحواً أو غير ذلك تكشفه عنه تلك الملاحظات .. ولا نحن بحيث نستفيد من تلك الملاحظات فى عمل من الجمع قد يتكرر أو يعاد اليوم .

وهل للجمع اليوم مجال ؟ إنه لسؤال يثيره لون من التداعى ، تداعى الخواطر ، بمناسبة هذا الحديث عن جمع اللغة .. ولم نتعرض له ..

***

والحق أن هذا الجو المنهجى للبحث اللغوى الذى نعيش فيه ، بهذه المحاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية جو يثير الشعور بضرورة ضرب من الجمع اللغوى ، لا يزال له مجال فى درسنا ــ بل أنه لضرورى هام تقضى به اعتبارات تاريخية عامة ــ واعتبارات لغوية خاصة ــ ولعله إن يتم يسد نقصاً فى معرفتنا بالجزيرة العربية دونه كل نقص فى جمع الأولين للغة . وفى كتابتهم للتاريخ ، وفى كل الذى نقلوه إلينا عن الحياة العربية ، برواية كلامية يشوبها كثير من الشائعات والأسطوريات ، والمختلقات .. وينقصها غير قليل من الدقة .

وذلك الجمع الذى نشير إليه بالمناسبة ، ونكبر من شأنه هو :

الجمع العملى المنقب فى أرضها الجزيرة العربية : التى لا شك مطلقاً فى أنها تحتفظ بودائع من الماضى ، لما الأهمية كل الأهمية فى معرفة ذلك الماضى ، بكافة صوره ، ومن جميع نواحيه : لغوية ، واجتماعية ، وفنية وسواها . . فإنما يقدم لنا هذا الجمع الجديد تلك الأدلة المادية وهى الأدلة الوحيدة التى يعتمد عليها التاريخ اليوم ويفتش عنها تفتيشاً جاداً . بأعمال الحفر والتنقيب التى يجد فيها الباحثون فى أنحاء المناطق الأثرية القديمة ، وينصبون لذلك ويبذلون ، ويعانون فيه . . ويعنون بما تصل إليه أيديهم من الآثار فى مختلف موادها ، وجميع أماكنها . . وليست الجزيرة إلا منطقة هامة من تلك المناطق الأثرية ، تحتفظ بالكثير من آثار ما عاش فيها ومن عاش فيها . . وقد قام الغربيون بشىء قليل من الحفر والتنقيب فى الشمال الغربى والشرق ، والجنوب بسوريا والعراق واليمن ، وكان لما عثرت به تلك التنقيبات أثره فى الناحية التاريخية واللغوية . ولا يزال لهذا التنقيب مجال أى مجال ، فى تلك الجزيرة المتحجبة ، التى لا يسهل السبيل إليها .

ذلك هو الذى نشير إليه اليوم من الجمع الجديد الذى يلفت إليه المنهج الدقيق ، وتتطلع إليه دراساتنا للجزيرة العربية من نواحيها المختلفة (١) وهو خليق بأن يقدم إلينا فى الميدان اللغوى بخاصة مواد عن حياة العربية وتطورها ، تكون بلا شك أدق وأصدق مما أعطانا الرواة الجامعون فى هذا السبيل ، وكان نقلهم موضعاً لشىء من هذا الاتهام الذى سمعنا بعض خبره قريباً ، فى تلك التقريرات التى حاولنا الاستفادة منها .. فلم نظفر بكبير فائدة ، وانتهينا بمناسبتها إلى هذه الرواية المادية ، والجمع الواقعى العملى لمصادر التاريخ اللغوى ، والأدبى ، والسياسى ، والاجتماعى . . وهو الجمع الذى يرجى منه أن ينير طريقنا ، ويسعف محاولاتنا فى رد الحياة إلى العربية ، وإكسابها أسباب النماء والتجدد بفضل المعرفة الدقيقة لماضيها معرفة تكشف لنا عن تطورها ،

---

(١) اقرأ مقال « يجب أن نعرف الجزيرة » فى العدد الاول من السنة الثانية من مجلة « الادب » . إبريل ١٩٥٧ .

واتجاه سيرها فى الماضى ، فتكون المحاولة فى سبيل مستقبلها مهتدية بالإدراك الصحيح لحياة ماضيها ، وقائمة على أساس واقعى على . . وسنزيد هذا المعنى فضل بيان فيما يلى من المحاضرات عند مواطن المناسبة .

***

وما نشير إلى هذا الجمع إلا ونحن مقدرون أصح التقدير ما يتطلبه الحفر من عزم صادق ، وإرادة جادة لا يقوى عليها إلا المجاهدون الصادقون فى سبيل العلم . وليس باليسير عثورنا عليهم . . كما نقدر ما يتطلبه ذلك الجمع المنقب من مال ، وخبرة ، وخلق على ، فوق ما يستهلكه من طويل الوقت حتى يؤدى إلينا ما نشير إليه من المصادر ومواد تلك الرواية العملية . . نعم . . إنا لنقدر ذلك أدق التقدير ، ولا نرى أمره يسيراً ميسوراً فى حياتنا اليوم . . ولكن لا يكذب الرائد أهله . . ولا يدعونا هذا الحاضر القاتم أبداً إلى اليأس من مستقبل قريب دارس جاد ، مؤد للشرق فرضه علينا فى هذا الميدان . .

وإنه لجهاد أكبر تتكاتف فيه قوى الشعوب العربية ، وتدبر له تلك الهيئة الجامعة المنسقة لنشاطهم ، والحديث فى هذا المعهد الذى تشرف عليه تلك الجامعة جدير بأن يكون المناسبة المثيرة الموجهة إلى مثل هذا الجمع المرجو فيكون ذلك القول تبصرة وتذكرة . يعيها الزمن ويلفت إليها ويشجع عليها .

ولا نطيل الآن بذكر شىء عن هذا الجمع الحافر المنقب ، لأنه ليس أكثر من أمنية المتمنى ، وأمل الآمل ، هفت إليها النفس ، وثار الشوق بمناسبة ما سمعنا من الحديث عن هذا الجمع اللغوى منذ أكثر من عشرين عاماً ذلك الحديث ، الذى رأيتموه فيما ذكرناه من أعداد مجلة المجمع حديثاً معاداً مكرراً ، معتمداً على قديم مردد ، لم يزده هذا الترداد الحديث شيئاً من حياة ، بل لم يحرره !!. ولو كان لناشىء من العمل يريحنا من هذا النشاط القولى المبدد ، ويمنع علوانه على جدتنا لكانت منذ بعيد

مشاركة فيما بدأه الغربيون الغرباء من التنقيب فى الجزيرة العربية .

***

والآن وقد أعوزنا الظفر بشىء من تشخيص علل العربية ، وتبين مشكلاتها ، فيما رأينا من تقارير سابقة ، لاخصائيين متفردين شخصوا هذا الجمع (١) نحاول أن نقوم بالمستطاع من الفحص ، لما خلف الأولون من مقررات وقواعد فى علوم اللغة المختلفة ، بادئين منها بمقرراتهم حول متن اللغة ومادتها . . التى لخصوا من أمرها مالخصوا ، ووصفوا لمختلف العلوم لتقرير الحقائق الخاصة بمفرداتها ومركباتها على ماتعرفون .

---

(١) أشعر بأن المناسبة هنا قويه للحديث عن جمع لغوى جديد ، تحدث عنه المجمعيون حين اتجه نظرهم أخيراً إلى الواقع الحيوى اللغوى فدعام داعون منهم إلى خدمة لغة العامة ، بعد ماقضى المجمع ثمانى عشرة دورة فى خدمة اللغة الخاصة لغة الفلاسفة والعلماء والرياضيين ... دون أن يولى المجمع عناية للغة العامة لغة البيت والشارع والسوق والمصنع والورشة والحقل فكان المجمع بذلك محايداً فى مسألة السباق بين الفصحى والعامية ، وكان حياده ثمانى عشرة دورة أوسنة مماجعل الامل فى تغلب الفصحى أبعد مما يظن .. وقد اقترح هؤلاء الداعون إلى الاتجاه الجديد : القيام بجمع جديد للغة العامة ـ لغة الحياة ـ بأن يعبىء المجمع قواه أو أكثرها ، لجمع ألفاظ الحضارة الموضوعة والمسموعة ، والمنقولة ، من البيئات المصرية ، والأقطار العربية ، فيكلف محرريه ما كان يصنعه رواة اللغة الأولون من الخروج إلى البوادى ومشافهة للأعراب ، والنقل عنهم فيخرج المحررون كل يوم إلى المتاجر والمصانع والمزارع فيسألون كل ذى سلعة وكل ذى صنعة ، وكل ذى آلة عن إسمها العام ، واسم كل جزء من أجزائها ، وكل نوع من أنواعها ، ثم يدونون كل ذلك بأوصافه وصوره ، ويصنع مثل ذلك فى الاقطار العربية ، فيوفد المحررين إلى الشام والعراق وتونس فيعملون منها ماعلموا فى مصر تحت إشراف عضو المجمع هناك وتوجيهه ، حتى إذا عادوا ضموا ماجمعوه إلى ما جمع غيرهم ؛ ثم قدم كل أولئك إلى اللجان المختلفة فتصنفه ، وتغربله وتعرفه ، ثم تعرضه على مجلس المجمع . . وقد اتبع هذا الاقتراح بثان هو : تخصيص المجمع دورتين أوثلاثا لهذا العمل لايكاد يشتغل فى غيره . . . كما تبعهما اقتراح ثالث . بوضع تلك الالفاظ بتعاريفها وصورها فى معجم خاص يسمى معجم ألفاظ الحضارة ـ مجله المجمع العدد التاسع ص ٣٣ ـ ٣٥ .

وأنه لما يلفت النظر أننا نسمع فيما مضى من نقد القدماء أنهم لم يتبعوا فى جمعهم الطرق العلمية ثم نسمع هنا حديثا عن جمع جديد على طريقة القدماء .. كما أن المجمع نفسه قد اتجه هذا الاتجاه فى درس اللهجات الحديثة ، وتطلع إلى وضع الاطالس اللغوية ، وانتدب الخبراء لذلك ، ووصفوا من طريقة عمل هذه الاطالس ، وكيفية جمع اللهجات المختلفة ، مايحدث به المنهج اللغوى الحى لعمل تلك الاطالس فى دقة وتحر عميق ، لايرضى عن تقليد عمل الرواة الاولين وخروج المحررين لسؤال كل ذى سلعة وذى صنعة .. على نحو ما سبق فى شرح هذا الاقتراح !!!

ونبدأ من هذا بفحص مقرراتهم العامة : عن اللغة .

ومن ذلك قضاياهم في :

نشأة اللغـة العربية

فقد بحثوا عن أصل اللغـة العربية ، وأكثروا البحث ، إذ كان جوهم العقلى بطابعه الغيبى واتجاهه الدينى جديراً بأن يحبب إليهم الكثير من مثل هذا البحث عن أصول الأشياء ، الذى هو حتى اليوم بحث غيبى ميتافيزيقى ، لا يعتمد على الأسلوب العلمى التجريبى .

ولم يقتصر هذا البحث القـديم على اللغويين الخلص ، بل شـاطرهم هذ النشاط أصحاب علم أصول الفقه ، الذين شعروا بالحاجة إلى كثير من الدراسات اللغوية خدمة لغرضهم فى فهم القـر آن وأخذ الأدلة منه ، فضموا إلى علمهم مقدمة سموهـا المقدمة اللغوية ، صارت شطراً هاماً من هذا العلم ، ومنحت من العناية ما جعل الدارسين فى العصور المتـأخرة يبذلون فيها من الوقت والجهد ما لا يبذلون شيئاً منه فى المبـاحث الأصيلة فى العلم ، كالاجتهاد وما إليه .

وألم الأصليون فى هذه المقدمة بمبـاحث لم يستوفها الدارسون اللغويون ، حتى ليتجلى أن تتبع ما عند هؤلاء الأصوليين من البحث اللغوى ، الملم بكثير من مباحث علوم العربية ، قد يكون أجدى من بحث أصحاب علوم اللغة أنفسهم .

ولقد ظللت أعواماً أدرس لطلبة الدراسات العليا ، فى كليـة الآداب بجـامعة القاهرة موضوع « الأصوليين فى بحث اللغة » . .

عنى هؤلاء وأولئك بالحديث عن أصل اللغة ونشأتها ، وأطالوا الأخذ والرد فى أن اللغة : أهى إلهام وتوفيق من الله أم هى إصطلاح وتواضع من الناس ، وتأثر القول فى

ذلك بصفة أصحاب المقالات الإسلامية ،من سنية ومعتزلة .. وخلفوا فى الميدان مالا نرى ضرورة لذكر شيء من تفصيله ، لأنه — كما يقول المحدثون — بحث لا يتسم بالسمة العلمية ، ولا يقوم على أساس من المنهج العلمى الحقيقى اليوم .

***

ويكفى أن نشير إلى ملحظين فى هذا المقام :

أحدهما : من انتباه الأقدمين الذى لا نبخسهم حقهم فيه .

وثانيهما : من تناول المحدثين الذى لا نستحل عدم اللفت إليه .

فأما الملحظ الأول : فهو انتباه الأقدمين — رغم ظروفهم الحيوية والعقلية — إلى أن هذا البحث فى أصل اللغة ونشأتها ليس بذاك . . حتى قال قائلهم : والصحيح عندى أنه لا فائدة لهذه المسألة ، وهو ما صححه ابن الأنبارى وغيره ، ولذلك قيل « ذكرها فى الأصول فضول » (١) . .

وهى لفتة طيبة تريحنا وتريحكم من الوقوف عند كثير مما قيل فى أصل اللغة ... وتفسح لكم المجال للتفسير التطورى الاجتماعى للغة ، مما نرجو معه أن يكون تصوركم للظواهر اللغوية ، وفحصكم لها ، علمياً طليقاً من القيود التى لا أصل لها كتفسير الآية الكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها » وربطها بالقول فى نشأة اللغة .

وأما الملحظ الثانى : فهو شيء من عمل المحدثين ، أقف عنده لحظة أنبهكم بعدها إلى أثر هذا العمل فى المنهج الدراسى الصحيح .

والعمل الذى نشير إليه هو إسراف بعض المتناولين للمسائل اللغوية فى تقدير القول بأن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح . . و . . . و . . ثم ولدت اللغات عن ذلك — إذا حكى ابن جنى فى الخصائص هذا القول فيما حكى من أقوال فى أصل اللغة. (٢)

---

(١) المزهر ١ : ١٧ ط سنة ١٣٢٥ هـ .

(٢) الخصائص ١ : ٤٦ ط دار الكتب المصرية .

وإذا سيد من المعاصرين[1] يسرف فى تقدير الأمر ، فتوهم عبارته أن هذا القول فى أن أصل اللغة الأصوات هو قول ابن جنى ، ويقول إن هذا رأى بعض علماء العربية الأفذاذ فى أصل اللغة العربية منذ نحو ألف سنة ، وهو رأى أدنى إلى الفطرة والمنطق السليم ، وسنة النشوء والارتقاء فى نشأة اللغات ، وهو رأى علماء اللغات فى العصر الحاضر من عرب وعجم .

وفى هذا غير قليل من مواضع اللفت ، فإن القول فى عبارة ابن جنى نفسه معزو لبعضهم ... فبعض من هذا ؟ أهو بعض اللغويين .. ؟ أم بعض المتكلمين ؟ أم بعض المتفلسفين ، أم .. أم إلخ .. فعزوه لبعض علماء العربية تحكم .

وهو ينضاف إلى الميل الواضح لعزو هذا الرأى إلى ابن جنى نفسه مع أن ابن جنى رغم قوله بعد إيراد هذا الرأى . . « وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » لم يلبث أن عقب على ذلك بقوله . « واعلم فيما بعد ، أننى على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغول على فكرى» وذلك أنى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام السحر .. الخ ما يقول حتى ينتهى بقوله « ــ فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه وأنها وحى » .

« ثم أقول فى ضد هذا : كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا — وإن بعد مداه عنا — من كان ألطف منا أذهاناً ، وأسرع خواطر وأجرأ جناناً ،

---

(١) السيد عبد الله أمين فى كتاب الاشتقاق ص ١٢٥ .

فأقف بين تين الخلتين حسيراً ، وأ كاثرهما فأنكفئ مكثورا ، وإن خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف بإحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها قلنا به ، وبالله التوفيق».

فهل خطر لابن جنى هذا الخاطر الذى يعلق الكف بأن اللغة تقليد للأصوات فقال به فى موضع لم نره . ووقع هذا القول للسيد العصرى صاحب كتاب الاشتقاق ؟ ما أحسب أن شيئاً من ذلك قد كان ؟ !

وإذا لم يكن فى الأمر إلا هذا الذى قال ابن جنى فى خصائصه ، فليس فيه مبرر لعزو هذا الرأى لابن جنى . . لا ابتداعاً اقترعه هو ، فيحسب لبعض علماء العربية الأفذاذ ـ كما قال السيد ـ ولا اتباعاً وتقليداً أعلن به ابن جنى اعتناق هذا المذهب فما هكذا تفهم عبارته هذه . . ولا هو قد سكت عن النص على خلافها صراحة . . لأنه يقول [1] « قد تقدم فى أول الكتاب القول على اللغة أتوضع هى أم إلهام ، وحكينا وجوزنا فيها الأمرين جميعاً . . والذى يجوز فيها الإلهام لا يقول بأن منشأها إنما هو من الأصوات المسموعات ... الخ .

وكذلك فهم القدماء : أن الوقف هو الذى اختاره ابن جنى أخيراً ... وهذا ما يحكيه السيوطى [2] . . ثم كذلك اتجه المحدثون ، فناشر الخصائص يعلق فى الهامش [3] قائلا يبدو من هذا أن مذهب ابن جنى فى هذا البحث الوقف ، فنراه لا يجزم بأحد الرأيين .. ولو قدر الناشر عبارة ابن جنى الصريحة ، وهى قوله : « وجوزنا فيها الأمرين جميعاً » ورأى نقل السيوطى لما كان هذا الوقف ما يبدو ، بل هو ما تقرر .. !!

---

(١) الخصائص ٢ : ٢٨ ط دار الكتب .
(٢) الاقتراح فى أصول النحو ص٧ ط الهند .
(٣) الخصائص ١ : ٤٧ ط دار الكتب .

ذلكم هو الملحظ الثانى أردت بعرضه عليكم ألا تشغلكم الرغبة فى إكساب الأسلاف ما ليس لهم ، وألا تعتنوا بكسب مفاخر ليست كبيرة فى ذاتها .. ومهما تكن كبيرة فأكبر منها وأجل سلامة منهجكم فى تقرير الحقائق ، وصدق أمانتكم العلمية .. فلا شىء قبل هذا . . ولا شىء أقدس منه .

ثم إنه لمن التكاثر المفاخر — بغير مفخر — ما يقول السيد صاحب كتاب الاشتقاق من أن هذا القول بنشأة اللغة من حكاية الأصوات هو :
رأى علماء اللغات فى العصر الحاضر من عرب وعجم .. فأين علماء

اللغات من العرب ؟ ومن هم ؟ وأين قالوا .. !! وأما علماء العجم ، فى العصر الحاضر كما أشرنا فلا ينشطون لهذا البحث غير العلمى عن أصول الأشياء بعامة ، وأصل اللغات بخاصة . . بل يخرجون هذا البحث من نطاق علم اللغة . . وهم يقولون ، عن هذا الرأى بذاته :

إنه إذا لم يقم دليل على بطلانه فإنه لم يقم دليل على صحته .. وغاية الأمر فيه عندهم أنه أدنى إلى طبائع اللغويات .. فى تطورها وارتقائها .. الخ .

وإذا ما عرضت عليكم الملحظ الأول للقدماء ، فى عد البحث عن نشأة اللغة فضولا ، لأحرر تفكيركم فى مشكلات حياتنا اللغوية من النزعة الغيبية فقد ذكرت الملحظ الثانى لبعض المحدثين لأثبت تفكيركم فى هذه المشكلات على أساس من الدقة وعدم التنفج بما لا أصل له .

وبهذا ندع الحديث عن أصل اللغة أحراراً لنتحدث عن :

فعندهم : أنه سواء أكانت اللغة إلهاما إلهياً أم كانت اصطلاحاً بشرياً فلا بد من وضع يجعل لفظ كذا بإزاء معنى كذا ، بوضع واضع أول ، قدر الحاجة اللغوية ووضع الكلمات الوافية بها ، كما لحظ الاعتبارات الحيوية المختلفة التى سيحوج إليها الاستعمال فى المستقبل البعيد ، وأعطى الكلمات أحوالها التى تلائم هذا الاستعمال ، وتيسر أمره ... وبعبارة ابن جنى ، حكاية عن شيخه أبى الفارسى (١) :

. . . . أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم ، وعرفوا مصائر أمورهم ، فعلموا أنهم محتاجون إلى العبارات عن المعانى وأنها لا بد لها من الأسماء والأفعال والحروف ، فلا عليهم بأيها قد أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بهن جمع ، إذ المعانى لا تستغنى عن واحد منهن . . . ويتلو هذه العبارة من قول ابن جنى ما يزيد وضوح المعنى فى تقدير الواضع الأول جميع ظروف الحاجة اللغوية المستقبلة إذ يقول :

« وكان أبو الحسن يذهب إلى أن ما غير لكثرة استعماله إنما تصورته العرب قبل وضعه ، وعلمت أنه لا بد من كثرة استعمالها إياه ، فابتدءوا بتغييره علماً بأن لا بد من كثرة الداعية إلى تغييره ، وهذا فى المعنى كقوله :

رأى الأمر يفضى إلى آخر فصير آخره أولا

وقد كان أيضاً أجاز أن يكون « قد » كانت قديماً معربة ، فلما كثرت غيرت ، فيما بعد ، والقول عندى هو الأول ، لأنه أدل على حكمتها ، وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها ، فتركوا بعض الكلام مبنياً غير معرب نحو أمس وهؤلاء .

(١) الخصائص ٢ : ٣٠ ط دار الكتب .

وبعد الإطالة يختم بقوله : « فهذا كله وما يجرى مجراه مما يطول ذ كره يشهد لأن كل ما يتوقع إذا ثبت فى النفس كـونه كان كأنه حاضر مشاهد ، فعلى ذلك يـكونون قدموا بناء نحو ، كم ، وكيف ، وحيث ، وقبل ، وبعد ، علماً بأنهم سيستكثرون فيما بعد منها ، فيجب لذلك تغيرها (١) »

ولا يقتصر تطلع الواضع على الإفهام ، بل يمتد إلى التحسين أيضاً ، حتى يقول ابن الأثير(٢) : فإن الواضع لهذه اللغة العربية التى هى أحسن اللغات نظر إلى مايحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر ، ورأى أن من مهمات ذلك التجنيس ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة ... فوضعها من أجل ذلك .

ويتـكرر تقريرهم لهذا الأصل الأصيل عندهم فى وضع اللغة ، ويمنعون الشبهة عنه فيفسرون اختلاف لغات العرب باختلاف الوضع الأول ، وفى هذا ينقل ابن جنى(٣) عن الأخفش ما عبارته :

« وذهب إلى أن اختلاف لغات العرب إنما أتاها من قبل أن أول ما وضع فيها وضع على خلاف ، وإن كان كله مسوقاً على صحة وقياس ، ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها ، غير أنها على قياس ما كان وضع فى الأصل مختلفاً ، وإن كان كل واحد آخذاً من صحة القياس حظاً ، ويجوز أيضاً أن يكون الموضوع الأول ضرباً واحداً ، ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الأول إلى قياس ثان جار فى الصحة مجرى الأول » ويعقب ابن جنى على هذا مؤيداً فيقول :

« ولا يبعد عنى ما قال من موضعين : أحدهما سعة القياس ، وإذا كان ذلك

(١) الخصائص ٢ : ٣١ — ٣٣

(٢) المثل السائر ص ٩ ط البهية سنة ١٣١٢ . . وفى هذا الموضع مناقشة طريفة فى حساب الواضع للاعتبارات المختلفة وترجيح ما يترجح منها !!

(٣) الخصائص ٢ : ٢٩ ط دار الـكتب.

كذلك جازت فيه أوجه ، لا وجهان اثنان . . . والآخر : أنه كان يجوز أن يبدأ الأول بالقياس الذى عدل إليه الثانى ، فلا عليك أيهما تقدم ، وأيهما تأخر ، فهذا طريق القول على ابتداء بعضها ، ولحاق بعضها » .

***

وبما سمعت يردون كل شيء فى اللغة إلى الوضع الذى وضعه الواضع الأول بحكمة استقبلت من أمر الحياة ما استدبر ، وتعرفت المستقبل فصيرت الآخر أولا ، سواء فى ذلك الأحوال التى تعترى الكلمات فى استعمال المخالفين لها ، أو الزيادة التى تحتاج إليها الدنيا فيما بعد ، من الكلمات ، فوضعت القياس الذى يأخذ به الخالف حين يحتاج إلى الزيادة فى اللغة أو يضطر إلى مخالفة الواضع الأول . . ! !

علم الوضع

وقوة أصالة هذا الرأى عندهم فى تكوين اللغة كانت سبباً كافياً لأن يجعلوا من بين علوم العربية علماً خاصاً بهذا الشأن سموه «علم الوضع» وهو : علم يبحث عن أحوال اللفظ العربى ، من حيث ما يعرف به شخصية الوضع ونوعيته ، وخصوصه وعمومه ، إلى غير ذلك .

وتسمع قولهم : إنه من العلوم العربية ، وإنه باحث عن أحوال اللفظ العربى فحسبه علماً لغوياً ذا شأن ، وتخالك واجداً فيه معارف لغوية عن وضع اللغة ، وما كان من أمره ، وأنك مشرف على ما بعد درسك اليوم بشىء من الماضى تتبين به سير الحياة بهذه العربية .. ؟! لكنك لست واجدا من ذلك شيئاً ، فعلم الوضع هذا ليس إلا ضرباً من الكلام الفلسفى العقلى فى المستوى الذى كانوا يتناولون به كل الأمور بالبحث النظرى المعتمد أولا ، وقبل كل شىء ، على الاحتمالات الفرضية ، والصور الذهنية الإمكانية ، وما إلى ذلك مما هو معروف من طابع هذا الدور فى المعرفة الإنسانية.

وكذلك ستجد مادة علم الوضع لا تعدو ضروباً من التقسيم والتفريع لا مقسم فيها إلا اعتبارات نظرية لا أكثر . . . ثم يجرى الخلاف فى تفسير ما بين هذه الأقسام والتفاريع ، وتداخلها . . الخ ، فأبحاث علم الوضع ليست إلا من مثل :

ا — الوضع ينقسم إلى شخصى ونوعى . والشخصى هو وضع لفظ بخصوصه كأ كل . . والنوعى : هو وضع لفظ داخل تحت قاعدة كلية ، كوضع المشتقات ، فهى موضوعة كلها بوضع واحد تحته جزئيات كثيرة .

ب — الوضع تحقيقى ، وتأويلى ، فالأول مالا يحتاج فيه اللفظ الموضوع إلى قرينة

كوضع الحقائق . والثانى مايحتاج الموضوع فيه إلى قرينة ، كوضع المجازات والكنايات .

ويتداخل هذا التقسيم مع سابقه فيقولون : إن الوضع التأويلى كله نوعى . وأما الوضع التحقيقى فقد يكون نوعياً كوضع المشتقات ، وقد يكون شخصيا كوضع أعلام الأشخاص .

ولا يمتد العلم رغم هذا الاسم الضخم ، إلى أكثر من عدة تقسيمات تثير حفنة خلافات ، لا محصول لها .. كما لا أهمية للتقسيمات نفسها .. فكان علم الوضع علماً — بل شيئاً — هزيلا ضامراً ، لم تشعر الحياة بحاجة إلى نموه ، فظل فى تلك الحدود الضيقة أقساماً تردد ، وخلافات حولها ، لاعمق فيها ولاأثر لشىء منها إلا فى حياة كحياة تلك الأيام التى ظهر وعاش فيها علم الوضع : حياة صناعية متكلفة ، يرتزق فيها ناس بأشياء يوهمون بها أو يعمونها على الناس . أويقدورن على غير أساس أن لها شيئاً من الأهمية — إن قدروا —

***

وننظر اليوم إلى هذا القول الذى سمعت فى تكون اللغة العربية ، وأن طريق هذا التكون إنما كان هو وضع واضع جعل الآخر أولا ، وتبينت حكمته حاجة الأجيال والآباد ، فدبر لها ، ونظم الاختلاف عليها . . . ننظر فى هذا فنشعر شعوراً قوياً بأن فى الأمر على هذا البيان مخالفة لطبائع الأشياء ، لأن سير الحياة ، فيما تبين ، ليس إلا نشوءاً يعقبه ارتقاء ، وخالفاً يكبر عن سالف . فكيف يكون الأمر فى اللغة على عكس هذا ؟ ! !

لكن ما يبدو لنا غريبا هكذا لم يكن فى منطق القوم على هذه الغرابة ، فإنك لتعرف أنهم يرون أن الدنيا نصف ، قد ذهب خير نصفيها : ويقررون أن الأول قد ذهب بالمعرفة كلها ، كما ذهب بالخير كله ، وأن أفضل القرون قد مضى منذ أكثر من عشرة قرون ... فالنظام عندهم ليس نشوءاً وترقياً . . بل هو تنزل وتدهور . . بعد كمال وفضل .. ومن هنا تدرك أن أساس الخلاف فكرى جوهرى عام . . يمتد إلى

أشياء كثيرة . ولا يقتصر على اللغة بل يمس النظرة الكبرى فى سير الوجود كله لا سير اللغة فقط . . !

على أنك مهما تغض عن النظر فى هذا الأصل البعيد لمنطق التفكير فى عصره وعصرهم لاتلبث - مهما تكن متسامحاً - أن تستكثر هذا الذى يدعونه للقوم البداة من الحكمة الشاملة ، والنظرة النافذة ، التى تطلعت فى بداوتها الساذجة من وراء الأجيال الكثيرة إلى المطالب الإنسانية اللغوية النامية المتجددة ، وحسبت الحساب لذلك كله ، حتى فيما سيكثر استعماله من كلمات اللغة ، وما سيقل ، فجعلت آخر هذا على حال ، وآخر ذاك على حال أخرى .. الخ

ولقد يدفعك إلى الشعور بهذا الاستكثار ، بل الاستبعاد ، إسراف الكاتبين فى الإعظام من شأن هذه الحكمة وتكرار القول فيها .. فهذا صاحبنا « ابن جنى » يعقد باباً فى كتابه الخصائص : فى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض مانسبناه إليها وحملناه عليها .. ويشغل هذا الباب فى الجزء الأول بضع عشرة صفحة - من٢٣٧ إلى ٢٥١ - لا يزال الشيخ يردد فيها مثل قوله : وهو أحزم لها - العرب - وأجمل بها . . وأدل على الحكمة المنسوبة إليها . . وقوله : لأن الله سبحانه إنما هداهم لذلك ووقفهم عليه ، لأن فى طباعهم قبولا له ، وانطواء على صحة الوضع فيه ، لأنهم مع ماقدمنا من ذكر كونهم عليه فى أول الكتاب من لطف الحس وصفائه ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه . . الخ ما يطيل فيه من بيان أنه إن كانت اللغة وحياً فهم المصطفون .. وإن كانت شيئاً اصطلحوا عليه .. فهو مفخر لهم ، ومعلم من معالم السداد دل على فضيلتهم . . وفى أثناء ذلك يقول : فهل ذلك إلا لأنهم يحتاطون ، ويقتاسون ، ولا يفرطون ، ولا يخلطون .

وهذا وما إليه من حديث لغير ابن جنى (١) لا يقل مبالغة عنه مما يدفعك مكرهاً

---

(١) ومن ذلك مايعزى إلى الخليل بن أحمد شيخ اللغويين القدماء من أن : العرب عرفت مواقع كلامها وقامت فى عقولها علله كما جاء فى كتاب الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى .

إلى النفور من أسلوبهم فى تقرير هذا الوضع واعتماده على تلك الحكمة العقلية اللغوية لأهل العربية ، ولطف الحس ، ودقة الإدراك . . مما نسلم للعرب به بل بأكثر منه ، لو لم يجعل سبباً لهذا الوضع اللغوى ، السابق للحياة ، والمناوىء لواقعها ! !

على أنا لا نقف فى نقد القول بالوضع عند هذه العاطفيات . ولا عند القضايا البعيدة ، فى منطق التفكير العام أو الخاص . . بل نرجع من ذلك إلى ما ارتضينا من منهج على فى فحص الحقائق اللغوية ، على نحو ما بيناه آنفاً ، فى نقد الجمع اللغوى .

ونود أن ننتفع - كما اتفقنا من قبل - بما عسى أن يكون فى المقام من تشخيص للاخصائيين اللغويين الآن ، فلا نجد - فيما عرفنا - قولا للمحدثين ، فى تقدير ما قرره الأقدمون من حديث عن وضع اللغة . . بل على العكس نجد من حديث أصحاب اللغة ، وأصحاب الأدب جميعاً ما لا يلفت إلى شىء من نقد تلك المقررات . وللمجمعيين فى الوضع وأنه من حق المحدثين ، كما كان من عمل القدماء ما ستقف بعد للنظر فيه ، والملاحظة عليه . . ! !

وإذن فسنمضى إلى فحص هذا الوضع اللغوى بعرضه على المقررات اللغوية التى أخذت من الأسلوب التجريبى ، فى درس الاجتماع اللغوى ، لنعرف كل ما تسمح به طبيعة اللغة من الوضع على نحو ما وصفوه ؟ . . مقدرين أن هذه المقررات الجديدة أشبه ما تكون بمخابير الفحص العلمى المادى . . أو أشبه بالأشعة النفاذة الكاشفة . . كما قلنا . .

***

وفى هذا الميدان نسمع تقرير المحدثين أن اللغة ليست إلا ظاهرة اجتماعية ، وتلك الظواهر لا تقوم إلا على غير ما تصوره الأقدمون من أمور عقلية منطقية ، وأعمال صناعية تحكمية .

فيقول هؤلاء المحدثون : إن اللغة ـ أى لغـة كانت ـ إنما هى ضرب من النظم الاجتماعية ، والظواهر الإنسانية العامة التى يتولى درسها ذلك العلم المختص بهذا الجانب من الدراسات الإنسانية ، وهو « علم الاجتماع » ويتخذ لتلك الدراسة المنهج العلمى الحدث ، قدر ما تعين طبيعة المادة المدروسة . . ويخص الظاهرة اللغوية بفرع منه خاص هو : « علم الاجتماع اللغوى » .

وأصحاب هذا العلم يقررون : أن هذه النظم العامة التى تقوم عليها حياة الجماعة البشرية ، وعليها تبنى العلاقات والروابط بين أفراد هذه الجماعة بعضهم بعضا ، وبينهم وبين غيرهم من الكائنات .. هذه النظم الجماعية، ومنها اللغة ، تتحقق فيها كلها خصائص مطردة لا تتخلف ، وطبائع مشتركة لا تشذ عنها أى واحدة من تلك الظواهر الجماعية والنظم الاجتماعية . . ولئن كنا لا نعرض هنا للحديث عن تلك الخصائص المميزة لهاتيك النظم والظواهر فإنا نكتفى بالحديث عما يعنينا فى هذا الفحص عن حقيقة ظهور اللغة بما هى واحدة من تلك النظم الآدمية التجمعية . فنشير إلى حديث الاجتماعيين عن أن تلك الظواهر الجمعية ليست صناعة فرد بعينه أو أفراد بعينهم ، ولا عمل جيل بذاته ، ولا توجيه فيها لعقل الفرد ، أو الإرادة الفردية ، ولا تأثير له عليها ، فلا هو يستطيع دفعها إذا أراد ، ولا هو يستطيع صدها إذا شاء ، وما هو ، ولا قومه مجتمعين مستطيعين أن يقدموا من أمرها شيئاً أو يؤخروه . . فلا هم يتدخلون تدخلا إرادياً فى وجودها ، ولا هم يسهمون فى تنظيمها ، ولا هم يختطون طريقها .. وكل ما تتعرض له وما يواجهها من دوافع أو موانع ، أو منشطات أو معوقات ، وما تأخذ وما تدع ، وما تفعل وما تنفعل ، وما ينالها بكل أولئك من تغير وتحول ، أو توسع وتبسط ، أو توقف وتعطل ، لا يكون شىء منه إلا من نتائج العقل الجمعى ،

ومقتضيات الوجود التجمعي ، وهو مالا ينفي فيه منطق الأفراد ولايثبت ، ولا تعطى

فيه إرادتهم ولاتمنع، ولن يغيروا أبداً من واقع تحتمه القوانين الاجتماعية الثابتة المطردة .

وبحسبنا هذه الخاصة ، من خواص النظم الاجتماعية نطبقها على اللغة التي هي إحدى تلك الظواهر الجماعية .. ونعتدها جهازاً فاحصاً ، يكشف عما قدمنا من رأى فى وضع اللغة ، إذا ماعرضناها عليه ، وسلطنا عليها أشعته الكاشفة ، فنتبين سريعاً وفى وضوح أن ما زعمه الزاعمون من عمل الأفراد ، أو الكثرة ، فى تكوينها ووضعها لا يؤيده شيء من طبيعة اللغة . !

وسيتبين لنا كذلك بأسرع وأوضح مما سبق أن إدراك هذا الفرد الممتاز ، أو الكثرة الحكيمة لمستقبل اللغة ، واحتياطهم لآخر أمرها ، ومتوقع مستقبلها بأحوال فى كلماتها ، أوصفات فى جملها ، أوما إلى ذلك من تفسير لاستعمالها أوتحسين فى حالها ، وتكميل لوجودها ، على نحو ما سمعنا الكثير منه قريباً . . كل ذلك لا تحتمل تصديقه طبيعة اللغة على ماعرفها البحث الاجتماعى ، فليس لوضع الواضع الأول ، بحكمته وحسن تأتيه ـ أو بغير ذلك ـ وجود . . ولا سند .

***

ويلى ذلك بطبيعة الحال أن هذا الذى اصطنعوا من علم سموه « علم الوضع » ، يصف بطريق نظرية احتمالية صنيع هذا الواضع الأول ويندقه ، ويفسره ، ويجرى الخلاف بشأنه بين علمائنا وتحفظه كتب وتفرد له دراسة . . كل ذلك مما لايقبله المنهج الاجتماعى ، ولا يحتمل أن يقر فيه شيئاً ، أو يفسح صدره ، لقليل منه أو كثير..لأن اللغة عنده ـ كما سمعت ـ ليست إلا نشاطاً اجتماعياً ، لا اجتهاداً عقلياً ، وتدبيراً منطقياً.. ولا مجال لعمل الفرد أو الأفراد فيها إلا ماقد يكون من تأثير لنفسياتهم ، أو شئونهم العملية الحيوية على هذا النظام اللغوى ، الذى أنتجه العقل الجماعى ، فبرز فى الدنيا

كائناً حياً بين سائر الـكائنات ، مادية ومعنوية ، يتأثر بها ويؤثر فيها ، إذ يتفاعل معها ، فيكون ذلك فى حياة الظاهرة اللغوية مع الظواهر الأخرى للجماعة من نظـام سياسى ، أو نظـام اقتصادى أو نظام دينى .. وما إلى ذلك .. ويظهر أثر التفـاعل بين اللغة وسواها فى حياتها ، وتغيرها ، وسير الزمان بها .

ويجرى هذا التفاعل والانفعال طبقاً للسنن الاجتماعية التى يكشفها هذا الدرس الاجتماعى ، فتبدى له قوانينها ثابتة ، ماضية ، مطردة ، لايد لأحد بالتغيير فيها . . وإذا ما استقرت هذه الحقيقة من خصائص اللغة بما هى نظام اجتماعى ، اتضح لنا أن اللغات الصناعية المبنية على خطه منطقية ، قد وضعت مقدماً ، غير ممكنة الوقوع إلا إذا كانت لغات خاصة : لغات فنية ، ولوائح إعلانات ، فى هذه الحال يكفى الاتفاق بين الأشخاص المحدودين الذين يستعملونها للاحتفاظ بها كما خلقت دون تغيير(١).

***

وعلى ضـوء تلك الأشعة نستطيع أن نقرر فى اطمئنان ـ ما يلى من :

النتـــائج

١ ـــ ليس من المسلم القول بأن اللغة العربية تـكونت بالوضع على النحو الذى سمعنا منهم شرحه .

٢ ـــ لا مكان لهذا الذى يسمونه علم الوضع ، ولاجدوى فى الاشتغال به اليوم ، لأنه يقوم على أساس مناقض لطبيعة اللغة اجتماعياً وقد أدركنا من قبل أنه عمل عقلى صناعى لا لغوى . . أما وهو مع ذلك قائم على فرض غير ممكن الوقوع ، وهو بناء العربية على خطة منطقية قد وضعت مقدماً ، فالاشتغال به ، كما يبدو ، وليس إلا ضرباً من العبث الواضح .

(١) ج . فندريس ـ كتاب اللغة ص ٢١١ وما بعدها من الترجمة العربية .

٣ ــ أن التطور أصل أصيل فى حياة اللغة بما هى كائن اجتماعى . . وأساس التطور هو الوجود البسيط أولا ، ثم النماء المترقى ثانياً ، وخلال هذا الانتقال يتكون الكائن مترقياً ، ويتغير تغيرات متدرجة . .

ومعرفة هذه التغيرات ، وما خلفت فى كيان الحى هى الأساس الذى تبتنى عليه كل معرفة لهذا الحى ، وأجهزة جسمه ، وحالتها السوية ، أو ظواهر الانحراف فيها . وكلما كملت هذه المعرفة بالحى أمكن تدبير وجوده ، بما ينميه ويكمله .. وأمكن أن نطب له ، فنوقيه ما يمرضه ، أو يضعفه ، ونرد عليه عازب العافية . .

وعلى ذلك لن نهتدى إلى صواب من الرأى فى مشكلات حياتنا اللغوية إلا إذا ما أخذنا أنفسنا فى تبين هذه المشكلات بالمنهج الذى يقرر عكس ما قرره الأقدمون فى تكون اللغة العربية وحياتها . . . فإذا ما قالوا : إنها كانت كاملة دقيقة أولا ، ثم فسدت واضطربت ، قال هذا المنهج إنها كانت نامية متغيرة متكاملة ، ولها فى ذلك تاريخ حيوى ومرضى لا بد من معرفته قبل أن تقولوا بفسادها واضطرابها ، أو بم فسدت ؟ أو لم اضطربت ؟ ! وتلك هى المهمة الكبرى ، بل الهائلة ، لمن يتحدث عن مشكلات حياتنا اللغوية حتى يكون حديثه سليم الأساس .

وأخيراً فإنا نؤثر ألا ندع القول فى وضع اللغة القديم قبل أن نكمله بما يقال اليوم من الاخصائيين عن :

الذى أثير القول فيه من المجمعيين ، وكانت لهم فى الوضع الجديد مقررات رسمية ، وأبحاث علمية ، ينبغى أن نقف عندها ، لأنها على الأقل تلقى أضواء ساطعة ، على فهم الوضع اللغوى ، ومدى تأثيره فى تكون اللغة بالأمس . . . ثم فى نمائها اليوم .

وقد كان تعرضهم للوضع اللغوى بمناسبة ما سمعت قريباً ـ ص ٢٦ ـ من عتب بعض المجمعيين على بعض اشتغال المجمع ثمانية عشر عاما بلغة الخاصة، لغة الفلاسفة والعلماء الرياضيين ، دون عناية بلغة العامة ، لغة البيت والشارع والسوق والمصنع والورشة والحقل ، وأن ذلك كان حياداً من المجمع فى مسألة السباق بين الفصحى والعامية . . جعل الأمل فى تغلب الفصحى أبعد مما يظن . . ومضى هذا العتب يدفع المجمع إلى العناية بلغة العامة عناية عملية فانتهى إلى اقتراح فى الوضع هو :

فتح باب الوضع على مصراعيه بوسائله المعروفة وهى : الارتجال ، والاشتقاق والتجوز (١) . . . وانتهى الأمر بهذا الاقتراح ، بعد بحثه فى المؤتمر والمجلس ، ولجنة الأصول إلى أن يقرر المجمع : قبول أوضاع المحدثين والسماع منهم ، بما نصه : —

١ — تدرس كل كلمة من الكلمات الشائعة على ألسنة الناس ، على أن يراعى هذه الدراسة أن تكون الكلمة مستساغة ، ولم يعرف لها مرادف عربى سابق صالح للاستعمال ـ جلسة ٢٤ / ٤ / ١٩٥٠

٢ — يرى المجلس قبول السماع من المحدثين ، بشرط أن تدرس كل كلمة على حدتها قبل إقرارها ـ جلسة ٨ / ٥ / ١٩٥٠

وقد رأى أحد الأعضاء أن هذا القرار الأخير شامل لما كان اقترحه من توثيق من يرى المجمع صحة أسلوبه ، واستقامة عربيته من الكتاب والشعراء ، وجعل قوله

(١) مجلة المجمع ٨ / ١١٦ .

مدداً للغة وحجة فيها . . (١)

***

ونحن بحيث نقول شيئاً فى هذا الاتجاه المتحرر ، لكنا نرجئه الآن إلى مكان له فيما بعد : سيكون أشد مناسبة . . وإنما يعنينا هنا أن نستفسر عن معنى الوضع فى الاقتراح السابق .

ثم نستفسر عما يمكن أن يقع اليوم من وضع بالمعنى اللغوى . . .

فأما الاستفسار الأول عن معنى الوضع فى اقتراح المقترح فتح باب الوضع على مصراعيه ، بوسائله المعروفة وهى الارتجال ، والاشتقاق ، والتجوز .. أما هذا الاستفسار فعن مراده بالوضع ؟ وهل وسائل الوضع من الاشتقاق ، والتجوز هى مثل الارتجال تماما فى تحقيق معنى الوضع فتعد معه ؟

وقد قدمنا معنى الوضع فى تكون اللغة وأنه تعيين للفظ بإزاء المعنى بحيث يفهم منه هذا المعنى عند العلم بذلك التعيين .. فهو يعطى اللفظ ويعطيه المعنى ، أى أنه ـ كما يفهم من قولهم بوضوح ـ ليس إلا خلقاً وابتداعاً أعنى أنه « ارتجال » . . وبهذا يكون الارتجال غير الاشتقاق والتجوز ، وهو الذى يتحقق به المعنى الأول المفهوم عند استعمال كلمة الوضع فى اللغة ، وليس الارتجال قسماً من الوضع ، إلى جانب الاشتقاق والتجوز ، إذ المرتجل موضوع بشخصه ، كما مر فى بيان أقسام الوضع من قول الأقدمين والمشتق موضوع بنوعه ، وكذلك المجاز موضوع بنوعه أيضا .

ومن هنا يكون النماء اللغوى بالاشتقاق ليس إلا تطبيقاً لوضع مرتجل ، هو تعيين معنى كذا بإزاء صيغة كذا ، فى المشتقات ، وهو تعيين معنى كذا بإزاء علاقة كذا ـ فى المجازات وكل من إفادة المشتق وإفادة المجاز موضوع ارتجالا .. بنوعه .. أو موضوع وضعاً نوعياً كما يقولون . .

---

(١) مجلة المجمع ٨ / ٥٦

وإذا ما أردنا بالاشتقاق أقسامه الأخرى من الكبير والأكبر فواضح أن كل مادة من المواد التى تشترك فى أكثر حروفها أو التى تشترك فى حروف متقاربة المخارج الخ . . كل هذه قد وضعت على بيان الأولين — وضعاً مرتجلا بادىء ذى بدء ، وإن لوحظت وأحست الصلة بين معانى الأوضاع المشتركة ، ومعانى الأوضاع المتقاربة مخارج حروفها .

وهذا الملحظ دقيق بعض الشىء لكنه ليس بعيداً . . وبمراعاته يبدو أن الوضع إنما يطلق على إيجاد اللفظ الصالح المدلول لأى مناسبة يقدرها الواضع وإعطاء اللفظ هذا المدلول ، أعنى أنه لانماء للغة إلا بارتجال اللفظ بالاشتقاق ، أو بالتجوز فليس من إعطاء اللفظ معنى بعمل من الواضع ، بل هو — كما سبق — تطبيق لأصل ومبدأ وضعه الواضع الأول ، الذى يوجد هذه الألفاظ ، وما بإزائها من المعانى . .

وإذا كان هذا الارتجال هو المعنى الكامل فى الوضع ، وهو المقصود من الحديث عن الوضع فى تكوين العربية . . . إذا كان الأمر كذلك ، فإنا نستفسر استفساراً تالياً هو :

ماذا عسى يمكن أن يكون اليوم من وضع — للعامة أو للخاصة — بمعنى الوضع المراد وهو الارتجال ؟ . .

وسنجد جواب هذا الاستفسار عند المجمعيين أنفسهم إذ نقرأ فى مجموعات أعمالهم بحثاً ألقى عليهم ، عن الارتجال فى ألفاظ اللغة (١) . . ومن نتائج هذا البحث ما هو إجابة واضحة عن الاستفسار الأخير ، إذ الباحث يقول (٢) : —

« نخلص من كل ما تقدم إلى أن الارتجال فى اللغة حقيقة واقعة ، لايتطرق إليها

(١) مجلة المجمع ٨ / ١٠٦ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ص ٣١٤

الشك ، ولكنه محدود الأثر ، فقد يمر جيل أو جيلان ، من الزمان قبل أن نظفر في اللغة بكلمة أو كلمتين ، يمكن أن نعزوهما إلى الارتجال ، هذا في اللغات التي تركت وشأنها في الخضوع لعوامل التطور ، لا يقيدها في هذا سوى استعمالات الكتاب والشعراء ، وقادة الفكر مع الذوق الاجتماعي العام .

أما في لغتنا العربية ، التي لا نتركها نهباً للتطور ، بل نحصنها بحصون منيعة ، فرضها عليها القدماء من اللغويين ، فلا أمل من رقي أمثال تلك الكلمة المرتجلة إلى مصاف غيرها من كلمات اللغة الفصحى .

وإذا ما كان الوضع في المراد اللغوي هو الارتجال ، وكان شأن الارتجال ، في نظر الباحثين في المجتمع نفسه هو ما سمعنا فالوضع اللغوي ، بأصل معناه ، وهو الارتجال ليس مما يمكن أن يكون عاملا في تكوين اللغة بارتجال المحدثين .

وهو ما وضح في كلام الباحث عن الارتجال في اللغة ، وزاد وضوحاً بقوله بعد ما سبق من عبارته :

لست أدري بعد هذا : ما إذا كان مجمع اللغة العربية يرى الأخذ بظاهرة الارتجال في وضع مصطلحاته ، أم يكتفي بالطرق الأخرى من اشتقاق أو قياس ، أو مجاز ، أو استعارة ؟ .

وما دام هذا أمر الارتجال وندرته فماذا يصنع المجمع فيه أو به . . ؟ على أنك لا تنسى أن تلحظ أن السيد الباحث قد تساءل يوم ٢٨ / ١٢ / ١٩٥٠ ، وكان المجمع قد فرغ نهائياً مما سماه : قبول أوضاع المحدثين والسماع منهم في يوم ٢٤/٤/١٩٥٠ أي منذ بضعة أشهر سابقة . . ! ! وهو لون من عدم التناسق . . يظهر كثيراً في نواحي نشاطنا المختلفة . .

وبعد .. فإنا نستطيع أن نقول : إن الوضع اللغوى ، بمعناه الأول الذى وضع له به علم خاص ، إنما هو عمل قد ضاع أوله فى مجاهل التاريخ ، وفسيح الأدهار، فلم يعد القول به اليوم ، أو الاشتغال بعلم خاص له مما تسيغه المناهج اللغوية الحديثة ، التى ثبت لها أن اللغة أعصى من أن تطوع هذا التطويع الهين ، وتضبط ذلك الضبط العقلى ، الذى يدرك الآخر فيجعله أولا . . !

إن الوضع بهذا المعنى ليس مما يستطيع المحدثون أن يكسبوا به اللغة ثراء ، أو يمنحوها جديداً ، لأنه محدود الأثر فى حياتها .. وكذلك يبين من هذا الفحص : أن الوضع لا ينبغى أن يشغل حيزاً من عنايتنا ودراستنا اللغوية . . لأنه فى القديم فرض غير قريب الوقوع ، ولا سليم العقبى . . وفى الحديث محدود ، ضعيف الجدوى على اللغة ، ولا أمل فى التشبث به . . فلندعه إلى فهم التكون اللغوى عن غير طريقه ، ولنلتمس النماء اللغوى كذلك عن غير طريق هذا الوضع المرتجل اليوم أيضاً .

***

ولنا بعدُ عودة إلى الوضع نستطيع أن نتحدث فيه ولكن بعد خطوات لا بد منها قبل الحديث . .

والآن نمضى فى هذا الفحص مستمعين إلى حديث القوم فى :

استكمال اللغة

فقد سمعنا القول فى نشأتها ، ولم نقف من ذلك عند رأى فيها ، لأن المجال غيبى ، لا سبيل فيه للعلم ، ونحن لا عناية لنا بالرجم . . .

ثم سمعنا القول فى وضعها .. ولم نقف عند القول بوضعها العقلى، المستقبل للآباد، بالقدرة الفذة ، فتركنا اللغة بين أخواتها من النظم الجماعية ، والظواهر التجمعية . .

وبقى أن نسمع قول القوم فى استكمالها : أكان فجأة بخلق مستقبل ووجود كامل، دفعها إلى الحياة تامة التكوين ، مكتملة التركيب ، وافية بحاجة الأجيال والأدهار ؟ أم كان ذلك فيها شيئاً بعد شىء ، ونماء بعد بدء ، ومسايرة للزمن ، وتركباً بعد بساطة ، وكمالا بعد نقص ؟ .

لعل القوم أقبل للفكرة الثانية إذ يقول « ابن فارس » ت ٣٩٥ هـ (١) :

« ولعل ظاناً يظن أن اللغة » التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة . . وليس الأمر كذلك ، بل وقف الله جل وعز آدم عليه السلام على ماشاء أن يعلمه إياه ، مما احتاج إلى علمه فى زمانه ، وانتشر من ذلك ماشاء الله ؛ ثم علم بعد آدم عليه السلام، من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبياً نبياً ماشاء أن يعلمه ، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فآتاه الله عز وجل من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله ، تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ؛ ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت . فإن تعمل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده .

وفى هذا النص قول واضح بالتوقيت ، وأن هذا التوقيت الآلهى على

(١) الصاحبى ص ٦ ط السلفية سنة ١٩١٠ م .

يد الأنبياء ، لم يبرز اللغة خلقاً سوياً مبتدأ ، بل تطاول فى ذلك الزمن ، من آدم إلى محمد عليهما السلام .. وبينهما من أنبياء العرب حلقات تطورية أحدثت فى العربية جديداً بعد جديد ، على يد نبى بعد نبى ، يعلمه الله ما شاء أن يعلمه ، حتى اكتمل الخلق السوى التوقيفى ، بما علمه الله محمداً عليه السلام ، فلا لغة بعده ، وإن تعمل لذلك متعمل نفاه نقاد العلم وردوه .

وهو كما ترى شرح للتغير اللغوى فى زمن متطاول ، يستهلك عصر الحياة على الأرض من بدئه ـ بآدم ـ إلى محمد عليهما السلام . . وهو دهر ليس بالقصير . . وتسلم فيه جملة من فكرة نمو اللغة ليست بالقليلة ، وإن كان هذا النماء قد وقف ببعثة خاتم النبيين ، وانقطاع وسائل التوقيف والتعليم بختم الرسالة .

***

« وابن جنى » ـ ت سنة ٣٩٢ هـ ـ معاصر « ابن فارس » لا نعرفه إلا مجوزاً الرأيين فى التواضع والإلهام ، ومع هذا التجويز لا ينتظر أن يقدم شرحاً لنماء اللغة واستكمالها على هذا الوجه السابق من قول « ابن فارس » . . وهو يعقد لذلك باباً مفرداً (١) : فى هذه اللغة : أفى وقت واحد وضعت ، أم تلاحق تابع منها بفارط . . ويصدر الباب بتقرير التلاحق اللغوى فيقول « . . وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها فإنها لابد أن يكون وقع فى أول الأمر بعضها ، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعى إليه ، فزيد فيها شيئاً فشيئاً » . . ثم يتبع هذا التلاحق بما يحفظ أمر الوضع اللغوى ، ويقرر ثباته ، على نحو ما أشرنا إليه قريباً ، فيقول فى بيان ما زيد فى اللغة . . « إلا أنه على قياس ما كان سبق منها فى حروفه وتأليفه ، وإعرابه المبين عن معانيه ، لا يخالف الثانى الأول . ولا الثالث الثانى ، كذلك متصلا متتابعا ،

(١) الخصائص ٢ : ٢٨ وما بعدها .

وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول . إنه يحكى كلام أبيه وسلفه ، ويتوارثونه آخر عن أول ، وتابع عن متبع .. » .

ولا يعنى ابن جنى بوصف شىء من كيفية ما حدث من اللغة شيئاً فشيئاً ، وكيف كان يحدث ، قدر ما يعنى ببيان أن هذا الحادث من الشىء بعد الشىء إنما كان على مثال الأول : فهو بعد ما سمعت من الاتباع الثابت يسوق ـ ما أسلفناه ـ من رأى أبى الحسن ، فى أن الوضع الأول قد وضع مختلفاً ، وأن اختلاف لغات العرب إنما أتاها من قبل أن أول ما وضع منها وضع على خلاف ، وإن كان كله مسوقاً على صحة وقياس . ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها ، غير أنها على قياس ما كان وضع فى الأصل مختلفاً ، وإن كان كل واحد آخذاً من صحة القياس حظاً ..

وقد يجيز نشوء الاختلاف وأن الأول قد وضع قياساً واحداً غير مختلف ، والآخر قد خالف عليه ووضع قياساً ثانياً جارياً فى الصحة مجرى الأول ـ وقد قدمنا نص عبارته فى هذا ـ فيكون الاختلاف أثراً لصحة عمل الأول والآخر جميعاً فى الوضع ، وإدراكهما للقياس . . .

ولا نمضى طويلا فى حديث هذا القياس الذى تشتد به عناية الشيخ . . وإنما نمضى إلى فهم رأيه فى نمو اللغة ، والموازنة بينه وبين ما مضى من قول « ابن فارس » فى هذا النمو ، فنجد من المعالم العامة للرأيين .

١ ـ أن « ابن جنى » لا يحدد زمناً لهذا التطور كالذى من غير الضيق الذى حدده « ابن فارس » من آدم إلى محمد عليهما السلام ، بل لعل « ابن جنى » يحدث عن زمن العرب فقط .

٢ ـ أن « ابن جنى » كذلك لا يعلن انتهاء الأمر إلى كمال فى اللغة لا مجال بعده لحدوث شىء ، بل جعل مناط الأمر حق العربى فى هذا وإدراكه للقياس ـ ولعل ابن جنى ينتهى بهذا إلى حد هو زمن سلامة اللغة فى ألسنة البدو الخلص من غير

أهل الحضر ، وغير من جاور الأمم الأعجمية . لكنه على كل حال أكثر مرونة من معاصره .. لو سلم له فهم التطور .. وهو ما لم يتحقق عنده كما سنشير إليه قريباً .

٣ — أن « ابن جنى » يرد التطور اللغوى ، أو النماء والزيادة فيها إلى حضور الداعى إلى ذلك ، لا إلى تعليم نبى بعد نبى ، وإن كنا نطمئن إلى أنه لايستبعد الوضع التوقيفى ، وتعليم الأنبياء شيئاً بعد شىء ، لأنه ما زال منذ تكلم يجوز الامرين جميعاً ، ويحكيه فى صدر هذا الباب عن تلاحق اللغة . . .

وإذن نستطيع أن نفهم اتفاق الرأيين فى استكمال اللغة على ما يأتى :

١ — لم تظهر العربية خلقاً سوياً مستقلا بل تغيرت وتحولت .. وإن لم نقل عن رأيهم « تطورت » بمعنى التطور عدنا اليوم .

٢ — لم يكن هذا التغير فى زمن قصير ، بل فى زمن هو تاريخ رقى البشرية وتكملها إلى أن تهيأت للرسالة الختامية العامة الموحدة للانسانية .. أى من آدم إلى بعث محمد عليه السلام عند « ابن فارس » .. أو زمن حياة الأمة العربية كله عند « ابن جنى » .

٣ — أن هذا التغير غير طلق ولا متحرر تخلقه الحياة بحاجتها اللغوية ، بل هو مقيد على كل حال .. فهو عند « ابن فارس » مقيد بالتوقيف الإلهى ، وتعليم أنبياء العرب .. وهو عند « ابن جنى » مقيد بوضع الواضع الأول ، الذى لا يخالف عليه من بعده .. وأن خلاف من بعده له ليس إلا أمراً لمتابعة المتأخر للمتقدم — على نحو ما سمعناه آنفا — ص ٤٩ . . . فليس التأثير فى هذا التغير اللغوى لشىء من العوامل التى يذكرها المحدثون !

وهذه المعانى وما إليها هى التى جعلتنى أسمى ما يشير القدماء إليه من أمر اللغة تغيراً أو تحولا ، إلى أن أعود بعد فأنظر فى تقدير مدى تحقيقه لفكرة التطور فى اصطلاح عصرنا .

وتظل المعانى اللاهوتية السابقة متناقلة فى الحياة بعد عصر « ابن فارس » و « ابن جنى » وطبقتهم بقرون . . فهذا « السيوطى » فى المزهر [١] يعقد فصلا عنوانه : ذكر إيحاء اللغة إلى نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام . . وما يزال ينقل فيه عن أهل الحديث حتى يكون مما ينقل معزواً إلى الرسول عليه السلام قوله : كانت لغة اسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفظنيها فحفظتها .

ولا تعنينا قوة هذا الحديث أو ضعفه ، وإنما تعنينا دلالته على العقلية اللغوية للذين يتناقلونه . . !

وهذا القول كما ترى من وادى قول « ابن فارس » عن أثر أنبياء العرب فى حياة اللغة العربية .

***

ثم يتقدم الزمن وينقل المحدثون عن الغرب دراسة تاريخ الأدب العربى ، ويتحدثون عن اللغة العربية بين يدى هذا التاريخ الأدبى ، فيتناقلون فيما بينهم حديثاً معاداً يسمى « تهذيب اللغة العربية » أو تنقيحها ، أو ما إلى ذلك ، يبلغون فيه إلى ذكر تهذيبات أو تنقيحات ثلاثة هى :

١ — ما عمل يعرب بن قحطان .

٢ — ما عمل اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام لما أصهر إلى جرهم .

٣ — ما عملت قريش بمكانها من الجزيرة فى الحرم ، وانتخابها الأمثل من لغات العرب التى تفد عليها . . وبهذه اللغة المهذبة نزل القرآن . .

وقد يجعلون لها أربعة تهذيبات [٢] إذ يعدون عمل اللغويين فى الجمع —

---

(١) حـ ١ ص ٢٢

(٢) عبد الله العلايلى : مقدمة لدرس لغة العرب ص ٢٨ ... وقد تعد التهذيبات، أو التنقيحات على غير هذا الوجه ، كالذى يقوله السيد مصطفى صادق الرافعى فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب : ٧٦ — ط سنة ١٩١١ .

على ما وصفناه سابقا ـ تهذيبا ، قصر اللغة على من اختاروا الجمع عنهم من خلص العرب ، ومن يجاورون الأمم الأعجمية .

والذى تلمحه فى طابع هـذه التهذيبات التى التقط المحدثون وصفها من عبارات تاريخية عامة ، عائمـة ، لا سند لها ، أنها على ما قد يلفتك من نصاعتها لا تخرج جملتها عن عبارة « ابن فارس » التى شممنا منها رائحـة الغيبية اللاهوتية . . . فإنك لتجد الألوية المعقودة ليعرب بن قحطان لا يشهد بها شيء إلا الحـكاية القاصة ، والرواية التى لا تعرف لهـا أصلا .. كما أنك تسمع انفتاق لسان اسماعيل بالعربية الأخيرة ، وهو عبرانى جاور قبيلة جرهم الثانية النازلين بقرب مكة وصاهرهم .. فهل تواضع وإياهم على اصطلاح جديد ، أو ألهم هو هذه العربية ؟ لقـد حدثوا كذلك عن احتمال الأمرين ، فبقى عرق الغيبية متصلا ..

ثم إنك لتجد تنقيح قريش ، أو تهذيبها دينى السبب .. قد هيأت له وأعانت عليه منازل قريش حول الحرم أيضا .. كما أن تسجيل اعتماد هذا التهذيب أو التنقيح هو نزول القرآن به ، إذ أنزل بلغة قريش . . .

وهـذا الـكلام يمكن ألا يبعد كثيراً عن قول « ابن فارس » فى كمال العربية بمحمدعليه السلام .

وهـذا لايشجع مجال القول عن التنقيح اللغوى الذى قد يطعمه المحدثون بخطفات من النشوء والارتقاء ، وفعل الزمن ، وتلاقى المتـكلمين باللهجات المختلفة من اللغة الواحدة ، أو تلاقيهم باللغات المختلفة ، فينفعل بعضها ببعض . . . الخ

لا يتسع مجال القول فى التنقيح لـكثير من الفائدة أحفل من القديم الموجز فى كتاب الصاحبى .. فما هوحديث ـ فى أى مرحلة من مراحل التهذيب ـ عما أخذت العربية أو تركت ، وما خلف التهذيب بكيانها من جديد التحول فى مادتها ،

أو فى صياغتها ، أو فى لهجتها . . . ولا جرم أنك لن تجد شيئاً من هذا فى عمل يعرب بن قحطان ، أو عمل اسماعيل بن ابراهيم لأنهما خطوتان فى ظلام الزمن . ومع أولية أدنى إلى الأسطورية منها إلى حوادث التاريخ . وحين لا تجد شيئاً فى هذين التهذيبين إن كانا كذلك - لن تجد فى تهذيب قريش بالحجيج والأسواق وغيرها إلا خلاص لغتها من مرذول اللهجات ، المردد ذكرها ، المعاد سمها : من كسكسة ، وكشكشة وشنشنة ، وعنعنة ، وعجعجة . . الخ . . فى كلام عام عن عظمة صنيع قريش ، ومواتاة الأسباب لها فى ذلك .. ثم لن تظفر بشىء محدود المعالم عن صنيع قريش هذا وآثاره فى كيان اللغة وبنائها ..

وليس من الإطالة أن أسمعك بعض عبارات الرعيل الأول من مؤرخى الأدب العربى المحدثين حين يتكلمون عن هذا التهذيب فيطنبون ويتأنقون وتقرأ من قولهم مثل :

« وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة فى غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ، ويأخذون ما استحسنوه منها . فيديرون به ألسنتهم ، ويجرون على قياسه « ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ». !!. حتى يقول (١) « . . وبذلك مرنوا على الانتقاد ، حتى رقت أذواقهم وسمت طبائعهم وقويت سلائقهم ، وحتى صاروا فى آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح فيها من الألفاظ ، وأسلسها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً . وأبينها إبانة عما فى النفس» ثم يذكر رحلاتهم ، ومن يلقون فيها من الأمم ويقول : « .. وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم فى وسط العرب كأنهم مجمع لغوى يحوط اللغة ، ويقوم عليها ، ويشد أزرها ، ويرفع من شأنها ، ويزيد فى ثروتها ، وبالجملة يحقق فيها كل معانى الحياة اللغوية ».

---

(١) المرحوم مصطفى الرافعى ، تاريخ آداب العرب ١ : ٨٣ وما بعدها .. ط سنة ١٩١١ .

فهل تراك أوفيت من ذلك على شيء تحدث به عما هو تهذيب للغة ، أو تنقيح ، أو نماء ، ثم كان ؟ وكيف اختلف به أمسها عن يومها أو غدها ؟ وفيم كا التغيير ؟. وإلى أين اتجه ؟ . . وما إلى ذلك من حقائق لغوية موضوعية ، تبين من أمر العربية أوضاعاً لغوية خاصة . . ! ! . وتعطى فكرة ذات شواهد من حالها . . ! !

وتمضى قدماً فى قراءة للمصدر السابق فإذا تهذيب قريش للعربية أدوار . . وإذا بها مدهشة . . وإذا بك لا بد أن تسلم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعى . . وهكذا يقول الكاتب رحمه الله : ـ

« ولا يسع المتأمل فى الأدوار التى تعاقبت على قريش فى تهذيبها اللغة إلا أن يستسلم للدهشة ، ويحار من أمر هذا التعاقب فإنه كالسلم المدرجة ، تنتهى الدرجة منها على نمط متساوق من الرقى ، إن لم يكن عجيباً فى تاريخ أمة متحضرة فهو عجب على الخصوص فى تاريخ العرب ، ولا سيما إذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة ، وأنها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة ، إلى مائة وخمسين على الأكثر ، فلا بد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعى ، ظهرت نتيجتها بعد ذلك فى نزول القرآن الكريم بلغة قريش ، وهو أفصح الأساليب العربية بلا مراء ، والله يحكم ما يشاء و يقدر » .

وإذا كنت سألت أين جملة هـــذا التهذيب ، وما مظهره ؟ وما الذى يضع الدارس يده عليه من حقائقه ؟ فماذا أنت سائل عن أدوار هذا التهذيب المتعاقبة ، التى كالسلم المدرجة ، تنتهى الدرجة منها إلى درجة ، على نمط متساوى من الرقى ؟ !

تلك الدرج ، وهاتيكم السلاليم هى ما يفهمه أصحاب القول بالتطور والارتقاء ، ويحضرونك منها الشواهد والمثل ، والأدلة المادية ، بل يجسمون لك أعضاء الكائن الحى إن كان مادياً ، وشواهده إن كان كائناً معنوياً ، لتلمس بها

تغيره ، وصور منها تطوره ؟ . . أما هنا فأدوار وسلاليم فى مجرى القلم ، ومزعوم الـكلم .

وإذا عصمت نفسك لحظة من الاستسلام لهذه الدهشة والحيرة فإنك لابد غير مسلم بشىء من الأحداث الـكونية وخوارق النظام الطبيعى ، التى يجبرك الـكاتب على التسليم بها ، ولا يدع لك من هذا التسليم بدا . ثم إذا بك تقول فى يقظة : إن زمن الخوارق والأحداث الـكونية لن يطول إلى اليوم ! ! وإن سنن الحياة ـ وفيها حياة اللغة ـ حقائق لا طفرة فيها ولا خوارق . . وليس يصح حكم على شىء فيها إلا بعد بحث ، وبحث ، يتعرف القوانين ، ويتبين النواميس . . وقد عرف الـكثير من حياة الـكائنات الأخرى . . !

وإن نقدك لمنهج الـكاتب فى فهم الحياة اللغوية وسيرها لجدير بأن يلفتك إلى أن هذا الحديث المدعى المتزيد كله لا يقوم إلا على جملة من القصص الشائعة يعتمد فيها على أشياء من التوراة ، وأخبار الجاهلية العربية المجهولة ، وذلك ومثله مما لا يستحق اليوم اسم التاريخ العام فهو أضعف كثيراً ، وأوهن جدا من أن يكون مادة لتاريخ خاص ، عن الظواهر الحيوية ، وألوان نشاط الوجود الإنسانى من لغة وسواها . . !

وحين تنـكر الأسلوب . . وتنقد المنهج . . وتجرح التاريخ ستنـكر ولا شك مع ذلك كله أن تـكون اللغة العربية قد انتهى أمرها فى قرن كذا ، وعام كذا ، أو بحياة فلان ، أو وقوع حادث كذا إلى ما زعمه « ابن فارس » وهو ما لم يؤته أحد قبلها . ولا يحاوله محاول بعدها . . مما يوشك الـكاتب العصرى أن يزيد على القديم منه بما زعم من أحداث كونية ، وخوارق طبيعية ، لعل « ابن فارس » فى عهده لم يستشعرها حين حدث عن كمال العربية ذلك الـكمال التام .

نعم ستنكر ذلك كله لأن العربية عاشت بعد ذلك أجيالا . وعبرت قرونا .
وقد أصابها من التغير ما أصابها مما لا ندريه . . وستعيش بعد ذلك أجيالا وأجيالا .
وتعبر قرونا وآماداً .. لا يدرى ما يصيبها فيها .. وقضية العصر الذهبى لـكائن ما ليست
اليوم هكذا قضية سهلة التسليم .. وقد تسمعك بعض الحديث عن بعض هذا فيما بعد . .

وفى كل حال نحن لا نحدث عن الأحسن والأفضل ، بل عن الشاهد والواقع ،
ما هو ؟ وكيف كان ؟ وكيف هو الآن ؟ .. وإلى أى طريق يتجه ؟ وسواء علينا
أ كانت العربية قد بلغت غاية رقيها قبيل الإسلام ، أم فى عصر البعثة ، أم بلغته بعد
ذلك . . أم لم تبلغه بعد ، فإنما يعنينا أن نعرف فى جلاء ووضوح ، وبالأمثلة
والشواهد ، ماذا كان من أمرها فى سير الحياة بها . . . وهو ما نسميه تطور العربية
بلسان البحث اليوم .

***

والتطور : كما لا بد أن تعرفوا ــ هو الأصل التجريبى لفهم سير الحياة بالكائنات
الحية على اختلافها .. وعلى هذا الأصل يتحدث الباحثون فى اللغات اليوم عن تطور
اللاغى نفسه وتطور اللغة . . فالصوت وجهازه فى الإنسان يتطور تطوراً طبيعياً
مطرداً . . وبذلك تتطور الأصوات اللغوية ، فى الأحرف التى تمثلها . . ويتطور
معها تأليف الـكلم . . ومع تطور اللاغى وتأثيره فى اللغة تفعل الحياة ما تفعل
بظواهرها المختلفة فى تطور اللغة ، سواء فى ذلك الظروف المادية والظروف المعنوية ..
فالبيئة الطبيعية المـادية التى تعيش فيها اللغة تؤثر فى تطورها . . والظروف النفسية
العاطفية والعقلية لمتكلمى اللغة تؤثر فى تطور اللغة .. وأنماط الحياة التى يحياها
متكلمو اللغة تؤثر فى تطور اللغة ، فدين أهلها .. وحكومتهم وعلمهم .. وفهم
وجدهم .. ولهوهم .. كلها .. وسـواها تؤثر فى اللغة وتوجيهها ، وتعمل فى
تطورها .. وتوارث اللغة بين أجيال متكلميها يغير اللغة ، ويؤثر فى تطورها . . .

ويتجسم فى هذه المجالات كلها ما يحدثون به جملة عن شدة حساسية اللغة ، وأنها فى ذلك أدق الظواهر الاجتماعية ، وأسرعها تغيراً ، وأحسها تأثراً .. فكل نبأة وهمسة فى حياة الجماعة التى تتكلم لغة تترك أثرها فى هذه اللغة المتكلمة ، وتغير من حالها ، وتحدث أثرها فى تطورها .

ثم بين اللغات نفسها صراع كما بين الأفراد والجماعات ، والتفاعل اللغوى عامل فعال . بعيد الفاعلية فى تطور اللغة .. وكل أولئك يتناوله الدرس المتتبع ، المستقصى المتعمق ، المجرب ، المستعين بوسائل الفحص العلمية المادية . الضابطة المسجلة . .

ولهذا الدرس فروع تتناول النواحى المختلفة التى أشرنا إلى غير قليل منها آنفاً .. والمجال ينفسح إلى المقارنات والمقابلات اللغوية . بطاقة بعيدة الأفق هائلة المقدرة . مبذول لها الجهد والمال والوقت ، فى حال تشعرنا بأن ما حدث به القوم قديماً ، وصوراً من الحديث عن تهذيب العربية أو تنقيحها . فيما حدث به المتأخرون ـ ليس من جد القول ، الذى يوقف عنده بشىء . . والموضوع يحتاج إلى الاستعانة بهذه الطاقة . بل الطاقات الجبارة . التى تتولى الدرس اللغوى .. ثم هو محتاج إلى مناهجها . . ويحتاج أشد الاحتياج وأسبقه إلى الشعور بفرضيته علينا ولزومه لنا وهو ما نحاول اللفت إليه .. والدفع نحوه . ونتفاءل بعض التفاءل بما يبذل اليوم فى هذا السبيل من خلق دراسة الصوتيات ـ الفونوتيك ـ وإيجاد مؤسسة علمية لهذه الدراسة ، مزودة بالأجهزة والآلات اللازمة . آملين أن يكون لهذا ما بعده من تجريد القوى لجمع مواد الدراسة اللغوية . من أفواه الناطقين بالعربية . فى أنحاء البلاد المختلفة . ومن بطون الكتب التى حفظت مواد هذا التطور . ومن جوف الجزيرة وما إليها من مناطق العربية و .. و .. مما نجد عند الناس حولنا نماذجه

ومثله . وتجاربه . ومناهجه ناضجة قريبة المنال .. ولا بأس بما أ كثرنا به من الحديث عن الآمال المرجوة ، فلا أقل من أن نجسم لدى أصحاب العربية ، وجامعة دولهم هذا الشعور بنقص الدرس فيكون ذلك الشعور بالنقص هو أول مراتب الكمال .

وإنما تعجلت بتقديم هذا الحديث اللافت عن التطور اللغوى ، فى مناسبة الحديث عن استكمال العربية ، لأهيء به ذهنك لفحص ما سيلقى عليك بعضه قريباً . من الحديث عن كمال العربية فى خصائصها ومزاياها ... إذ يكون شعورك بهذا التغير السريع ، العنيف . فى صراع حاد بين اللغات هو الانتباهة الأولى فى تقدير ما تسمع من حصائص العربية ومزاياها المنقبية .

***

وجملة القول فيما قدمنا من حديث عن استكمال العربية :

أن القدامى قد شعروا شعوراً قريب المدى بأن اللغة لم توضع مرة واحدة ، وأنها قد تلاحق تابع منها بفارط ، فكان هذا الشعور ـ على نحو ما سمعنا من قولهم عنه ـ ليس انتباهاً للتطور بما هو حقيقة حيوية .. فلم يدفعهم إلى التعلق بشيء من أمر هذا التغير المتلاحق ، ووصفه أو تبيان مظاهره . . وأحسن الظن منا بهذا الشعور منهم : أن نقول إنه ليس كفراً جاحداً للتطور يعوق القول فيه .

ثم أن طلائع المحدثين فى عصرنا قد لفتهم ما حولهم من جد فى فهم الحياة وتناولها إلى التحدث عن شيء من تهذيب العربية وتنقيحها ، ففاءوا فيه إلى شيء من قصص التاريخ ، غير المحقق ، يصفون به مرات من التهذيب أو التنقيح اللغوى ، ذلك الذى سمعت من الوصف الساذج الخطابى الذى ينتهى إلى كهوف الغيبية ، وخوارق الأحداث الكونية للطبيعة .

ولعل نفراً من المحدثين بعد أولئك الطلائع قد عرفوا حديث التطور اللغوى عند الغربيين ، وجهود الغربيين العامة فى درس اللغات ، ثم جهودهم الاستشراقية الخاصة، فى درس العربية ، وسائر الساميات .. فكان لهم فى ذلك التطور قول من صنف ما يقول البحث اللغوى العلمى اليوم .. وهو ما سنعرضه عليك بعد أن نقف عند نتيجة فهم القدامى لاستكمال اللغة وهى تقريرهم :

كمال اللغة

والذين قد أضفوا على واضع اللغة البدائي من الحكمة والقدرة ما سمعنا خبره . . وهم – كما نعرف – يعيشون في عصر تحتكم فيه الغيبية ، ليس ببعيد أن يضفوا على اللغة ، من الفضل والكمال شيئاً كثيراً . وليس بالبعيد أيضاً أن يؤيدوا هذا الكمال والفضل بما يمكن أ يؤيدوه به من الاعتبارات الدينية ، والمعاني الآلهية ، كما سنرى .

ونبدأ من ذلك بالتفضيل الديني المنشأ لهذه العربية الكاملة . . وهو ما كان منذ عصر مبكر . إذ نسمع الشافعي رحمه الله يقول في «رسالته» المعروفة في الأصول[1] « فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع » .

« وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ، ولا يجوز – والله أعلم – أن يكون أهل لسانه اتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع للسانه ، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه » وتتناثر في الرسالة أفكار للشافعي تدور جملتها حول أمور هي : –

١ – أن لسان العرب واسع سعة بينة .. قد تكون خاصة له دون غيره .

٢ – أن القرآن قد نزل بلسان العرب ، خالياً من كل لسان غير لسان العرب وكل هذا يخدم الفكرة التالية ، وهي :

٣ – أن الألسنة تتفاضل ، وأفضلها لسان النبي ، كما أن دينه أفضل الأديان .

ومثل هذا الاتجاه هو الذي نثر في الجو ما نسمع من تفضيل ديني المنشأ للعربية .

---

(١) ص ٤٦ ط الحلبي .

لـكونها لسان أهل الجنة . . وما شابه ذلك . . وعن هذا ونحوه استقر فى النفوس ماللغة العربية من صفة دينية ، وأن مساسها بإصلاح ـ مهما يكن شأنه ـ يحتوى دائماً على مخالفة الدين ، وعدم احترام لصفة العربية الدينية.. لغة القرآن . وتظل تنمى ذلك ظروف اجتماعية ، بريئة حيناً ، وغير بريئة حينا ، ونظل نسمعه عند المحدثين فى همهمة لا هوتية تخلب بعبارتها الفنية . . فتنشر الظلال ، وتنثر البخور المخدر إلى غير حد معروف كالذى تقرؤه فى مثل (١) :

«هذا فصل من الكلام نرمى فيه إلى أقصى غايات العقل العربى فى الحياة ، وأدنى آفاقه من الخلود . إذ نصف مبلغ ماانتهى إليه من الكمال فى وضع هذه اللغة وإحكامها على سنن كيفما تدبرتها رأيت فيها المعنى الإلهى الذى لادليل عليه إلا شعور النفس، والنفس هى البقية السماوية فى الإنسان . تلك السنن التى خرجت بها اللغة كأنها عقل حى تتلامح فى جهات الحكمة خطراته ، وتتراسل من أعين الوحى نظراته ، بل كأنها معنى إلهى مبتكر ألقى فى هذه الطبيعة فيتحول به وجه العالم إلى جهة الله ، فما زال يتكشف من أطرافه شيئاً فشيئاً حتى ظهر سر ابتداعه فى القرآن الكريم ، فاتضح عن روعة تملك على الإنسان مذاهب حسه ، وتنساب فى قلبه لتتصل بالروح الإلهى من نفسه » .

ومثل هذا غير قليل من ثنايا الكتاب الذى حمل هذا فى زمزمة دوارة ،لاتعرف من أين تجىء نفس القارىء ، وتأخذ عليه مذاهب حسه ، كما يقول الكاتب . . !

وتضع هذا القول وأمثاله مع ما يقول المؤلف (٢) حين يعد القول بالتوقيف فى اللغة إنما هو من باب التقوى التاريخية لا أكثر . . ومع قوله : وإذا كان من أصول

---

(١) المرحوم مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب ٢١٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٨ .

الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة وهذه من أصولها المواضعة .. ثم مع مثل قوله : إن العرب قوم رحل وقد اختلطوا بأمم كثيرة فلا بد أن يكون هذا الاختلاط بيناً فى تكوين لغتهم ، وتلك سنة عامة فى اللغات[1] تضع بعض هذا إلى جوار بعض فتجد البعد شاسعاً بين الاتجاهين ، وتعجب من أن يصدر هكذا عن قلم واحد .. وأبين منه فى البعد مثل قوله [2] أما المشابهة بين الأخوات الثلاث (العربية والعبرانية والسريانية) فهى متحققة فى جهات منها تحققاً يقطع الريب ، ويعتلج الشبهة فى أنهن أخوات أو فروع لأصل واحد » .. ! ! فهل تراه يثبت لأختيها — بلا شبهة — هذا الكمال ! ويجعل لهما نصيباً من هذا المعنى الإلهى المبتكر .. ويحول بهما وجه العالم إلى جهة الله ألخ !

وعلى كل حال فقد ترددت هذا الأنغام اللاهوتية فى جو المجمع اللغوى أيضاً وقال القائل [3] « .. فكيف واللغة العربية لغة القرآن والسنة ، وهما كل الدين » وقال الثانى .. أسميها أشرف اللغات وأنبلها [4] .

ولهذا القول المتوارث فى التفضيل اللاهوتى للعربية ماله من خطر .. ولكننا لا نفزع فى إتقائه إلا إلى التحقيق المتحرر للأقدمين أنفسهم ، لئلا يطول نفس الخلاف عليه إذا ماسقنا فيه كلا ما نقوله نحن اليوم .. فليسمع الواعون مايتناول به التفضيل الدينى جميعاً .. عالم من القدامى ، وهو « ابن‌حزم » ، إذ يقول عن التفضيل للغة على لغة ما عبارته [5] : —

« وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات .. وهذا لامعنى له .. لأن وجوه الفضل معروفة .. وإنما هى بعمل أو اختصاص ، ولا عمل اللغة ، « ولا جاء نص فى

(١) الرافعى المصدر نفسه ص٦٩ .
(٢) المصدر ذاته ص ٧١ .
(٣) مجلة المجمع ١ : ٣٥٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٦٩ .
(٥) الإحكام فى أصول الاحكام ١ : ٣٣ ط الخانجى .

تفضيل لغة على لغة ، وقد قال تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ليبين لهم» وقال تعالى «فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» ، فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام ، لا لغير ذلك . وقد غلط فى ذلك جالينوس فقال : إن لغة اليونانين أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات إنما هى تشبه إمانباح الكلاب ، وإما نقيق الضفادع » .

«قال على : وهذا جهل شديد . لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكر جالينوس ، ولا فرق » .

ولعل مما يزيد بيان « ابن حزم » فى إنكار مبدأ الأفضلية اللغوية إنكاراً مطلقاً قوله(١) : « وحروف الهجاء واحدة لا تفاضل بينها ، ولا قبح ، ولا حسن فى بعضها دون بعض ، وهى تلك بأعيانها فى كل لغة ، فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة ، وبالله التوفيق . وقد أدى هذا الوسواس العامى اليهود إلى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية ، وأدعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية ، فلا يكتبون عليهم غيرها وفى هذا من السخف ما ترى . . وعالم الخفيات وما فى الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه .. عز وجل »

والشيخ حين ينكر مبدأ الأفضلية بعامة ينكر بهذه الجهارة مبدأ الأفضلية الدينية ، للعربية ويقول (٢) : « وقد قال قوم : العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى » .

« قال على : وهذا لا معنى له ، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ، وقال تعالى « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال تعالى : « وإنه لفى زبر الأولين » ، فبكل لغة قد نزل كلام الله ووحيه ، وقد أنزل التوراة ، والإنجيل

---

(١) ابن حزم ـ المصدر السابق ص ٥٣ .

(٢) المصدر ذاته ص ٣٤ .

والزبور وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية وأنزل الصحف على ابراهيم عليه_السلام بالسريانية ، فتساوت اللغات فى هذا تساوياً واحداً . . وأما لغة أهل الجنة ، وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء فى النص والإجماع . ولا نص ولا إجماع فى ذلك » .

***

فهذا صدى صائح من جانب القبر ، منذ بضع مئات السنين ، إذ العقل البشرى ليس فى مثل درجته اليوم من النضوج والتجربة ، والتحقيق . . . فهل ترونا نكون أقل تحقيقاً وتدقيقاً من صاحب هـذا العقل الواضح فى القرن الخامس الهجرى ؟ ! !
لا أحسب أننا نرضى لأنفسنا ذلك ، أو ترضاه لنا الدنيا . .

وحسبنا هذا من القول فى نفى التفضيل الدينى للغـة العربية ولندع القول فى هذا الـكمال الدينى . . . لا نلوى منه على شىء بل نتابع تبصيركم بواجبكم فى تحرير التفكير وتصحيح المنهج اللغوى بكلمة جد موجزة عن :

التفضيل اللغوى

فى هذا الجو الذى شممنا عرفه اللاهوتى ، وفى هذا المستوى الثقافى الذى لا يمكن أن ينتهى فيهما لا تحتمله درجة الرقى الاجتماعى لعهده . . فى هذه الآفاق كانت فكرة كمال العربية لغوياً وفضلها على سواها من اللغات فضلا خارقاً مسرفاً ، تجد مجالها الفسيح فى الميدان اللغوى .. ولعلنا نجرؤ على رجم أولية هذه الفكرة - فيما وصلنا - إلى اللغوى الذى أشرنا إلى اسمه غير مرة فى التفضيل الدينى ، وهو « ابن فارس » فإن كتابه « الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العربية فى كلامها » . . ليس فى أوله وآخره إلا حديثا عن هذا التفضيل للعربية (١) دينياً ولغوياً . وقد أخذ عنه فى قريب من عصره ، الثعالبى فى كتابه ، «فقه اللغة وسر العربية » . وهذا قسم متميز عن الفقه ، وهو فى مجارى كلام العرب وسننها ، والاستشهاد بالقرآن على أكثرها . . ومهما تقدر نشاط الثعالبى فى استخراج أمثاله ، وتجديده فيها بغير ما يورده « ابن فارس » فإنك تقرر تأثر « الثعالبى » الواضح بما قدم « ابن فارس » فى هذا الميدان ، وبينهما زمن لا يزيد كثيراً عن ثلث قرن . . . ومحاولة « ابن جنى » - وهو معاصر لابن فارس فى هذا التفضيل والكمال اللغوى من هذا الوادى ، وإن كانت أهون مبالغة ، وأشبه بالجو

---

(١) ومن الأنغام اللاهوتية فى الحديث عن العربية مثل قول الثعالبي فى مقدمة كتابه « فقه اللغة » : من أحب الله تعالى ، أحب رسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ؛ ومن أحب العرب أحب العربية التى بها نزل أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب . . . وهو يعود فى الموضع ذاته فيكرر المعنى بصورة أخرى قائلا : ومن هداه الله للاسلام . . . اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الامم ، والعربية خير اللغات والالسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة . . إلخ . وهى المعانى التى سمعناها من الشافعى قريباً فى معرض أميل إلى العقلية ، ونسمعها هنا بمعرض أجنح عاطفية ، يجلله الحديث عن الحب والميل . . . ونسوق مثل هذا المكرر ونحن نصغى الى جسم ابن حزم ليلقف ذلك كله .

اللغوى ، وتؤسس بها فلسفة لغوية فى إدراك خصائص العربية تعتمد على حس لذوقها ، لايزال له حتى اليوم مجال للقبول والتقدير ، على ما سنبينه ، من مذهب الشيخ وأستاذه أبى على الفارسى ، فى ضبط المعانى ، وردها إلى اعتبارات مطردة فى حروف تأليف الكلمة واتحادها ، وتقاربها ، وما إلى ذلك . .

ونجد فى بعض الأمهات اللغوية القديمة مثل هذا التفضيل اللغوى للعربية ، فى لون من المبالغة أو الاعتدال ، ومن صحة المنهج ، أو مع الدخل فيه . . ويكفى أن نشير إلى ما نحب تجنيبكم إياه من الإسراف أو التساهل بمثل واحد ، من هذا التفضيل اللغوى الذى لا يسنده بحث صحيح . . ذلكم هو حديث « ابن فارس » الذى عقد له باباً عنوانه : باب ذكر ما اختصت به العرب . . وفيه يقول[1] :

«من العلوم الجليلة التى اختصت بها العرب .. الإعراب ، الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام . ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيده » ... وبعد فقرة من القول عن رأى غريب فى أن الإعراب يختص بالأخبار ، دون الإنشاء ، ورده له يتقدم « ابن فارس » إلى حديث عجيب عن احتقار الزعم بأن لغير العربية إعراباً ، فيقول فى الموضع السابق : « وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو. قال أحمد بن فارس : وهذا كلام لايعرج على مثله ». ولن تستغرب هذا الإنكار إذا ما استمعت إلى أغرب منه وأعجب فى تفسير الشيخ كيف اختلس هؤلاء القوم إعرابهم ونحوهم من العربية ، وزوروه لأنفسهم . . كما كان يقول عامتنا فى حقبة

---

(١) الصاحبي ص ٤٢

من الزمن : إن الأوربيين قد أخذوا كل هذه الاختراعات من كتب عربية مخطوطة سرقوها . . فاسمع هذا النغم منذ أكثر من ألف سنة فى قول الصاحبى ، بعد الذى تقدم من عدم التعريج على مثل هذا الكلام . وعبارته :

« وإنما تشبه القوم آنفا بأهل الإسلام ، فأخذوا من كتب علمائنا ، وغيروا بعض ألفاظها ، ونسبوا ذلك إلى قوم ذوى أسماء منكرة ، بتراجم بشعة ، لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها » .

وهو يعقب على ذلك بمثل آخر يشد به أزر ما قدم من إسراف هؤلاء المزورين فى دعاواهم فيقول :

«وادعوا مع ذلك أن للقوم شعراً ، وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء ، نزر الحلاوة (١) غير مستقيم الوزن ، بلى .. الشعر شعر العرب .. ديوانهم وحافظ مآثرهم ، ومقيد أحسابهم .. ثم للعرب العروض التى هى ميزان الشعر ، وبها يعرف صحيحه من سقيمه ، ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد ، والخطوط ، والنقط التى لا أعرف لها فائدة ، غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين ، وتنتج كل ما نعوذ بالله منه ! ! ! »

وهو بعبارته الأخيرة هذه يعود إلى نغمته القديمة فى إنكار ما ترجم قومه من علوم الأوائل ، وبراءته من النظر فيها ، رغم أنه هنا يقول : إنه قرأ ما يزعمونه لهم من شعر ، ووجده قليل الماء . . الخ . وليس من الاستطراد أن أسمعكم عباراته التى أشير إليها هنا فى علوم الأوائل والبراءة منها إذ يقول :

« وقد زعم ناس أن علوماً كانت فى القرون الأوائل ، والزمن المتقادم ، وأنها درست ، وجددت منذ زمان قريب . وترجمت وأصلحت منقولة من لغة إلى لغة ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

وليس ما قالوا ببعيد ، وإن كانت تلك العلوم بحمد الله وحسن توفيقه مرفوضة عندنا ».

فليت شعرى ، والشيخ على ما هو عليه من إنكار لقول الغرباء ورفض له بحمد الله وحسن توفيقه ، ماذا هو قائل إذا ألقينا إليه بعض قول من ورثوا أولئك القوم ، عن خصيصة الإعراب التى أفرد هو بها العربية ، إذ يقول هذا الإفرنجى ، فى مصر ، وعلى منابر الدرس فيها[1] : « الإعراب سامى الأصل ، تشترك فيه اللغة الأكدية ، وفى بعضه الحبشية ، ونجد آثاراً منه فى غيرها » . . هذا إذا لم نذكر له شيئاً من أمر الإعراب فى لغات الذين زعموا لهم ، نحواً كما زعموا لهم علوماً ترجموها .

ومن هذا المثال الوحيد ، الذى نجتزىء به ، فى مقام الحديث عن التفضيل اللغوى للعربية . . من هذا المثال تدركون ما أردت لأوجه ذهنكم إليه ، من مجال للدرس اللغوى ، يعوز مشكلاتنا اللغوية الكثير منه ، ولا تستقيم لنا محاولة إصلاحية ، ولا حكم لغوى ، فى هذا الميدان إلا بعد الإلمام بهذا الدرس ، بل بعد التشبع منه ، والتخصص فيه . .

***

ولئن طال حديثى ليكم عن المنهج وتكرر فما أبتغى إلا أن تنتبهوا إلى الشعور بهذا الوجوب ، قدر ما تتمثلون صواب المنهج ، فقد طال قولنا وقول سوانا فى اللغة وشأنها ، وتمادى به الزمن ، ونحن وهم نبدىء ونعيد فى عزلة العربية ، وقصورها . وضرورة رد الحياة إليها ، وأهمية مسايرتها لحاجات الأمم التى ورثتها . . الخ . دون أن يبدو لذلك كله أثر يذكر أو يتناسب مع السنين الطوال ، التى مضت على هذا الحديث الأجوف ، وعلى ما تلاه من جهود تكررت فى الإقليم الواحد من أقاليم تلك العروبة ،

---

(١) برجستراسر : التطور النحوى للغة العربية . سلسلة محاضرات ألقاها بالجامعة المصرية — جامعة القاهرة — ص ٧٥ من الطبعة الخاصة .

وتعددت فى مواطنها المختلفة ، وكانت تنتهى جميعاً إلى ما لا يتساوى فى شىء ، مع الإعداد ، والتدبير ، بل البذل والإنفاق ، وجهاد رجال عماليق فى أقوامهم ، كبار فى هيئاتهم ، نصبت لهم الدولات ، وأفسحت المجالات . ثم مضى الزمن ، فإذا قائلهم يقول بعد ثمانية بعد عشر عاماً : إنهم لم يبلغوا مبلغاً فى صراع بين الفصحى والعامية . . ! !

وما أقدر من أسباب ذلك القصور إلا أمر المنهج اللغوى وتصحيحه ، والدرس السليم وتحقيقه ، فلو قد تأصل ذلك وتأسس لكان من أوائل الحقائق فيه استقرار النواميس اللغوية والاجتماعية ، والبصر بالطرائق الحيوية ، فى تفاعل اللغات ، وفعل لزمن بها ، وكيف تؤيد اللغات فى ذلك بالوسائل المجدية المجربة ، لا بالتعصب تارة ، والتمجيد طوراً ، والتنزيه حيناً ، والتدين آناً . مما ظللنا به ندور فى حلقة مفرغة ، لا يدرى أين طرفاها . .

وهذا القلم ـ كما قدمت فى الفاتحة الأولى ـ مستهتر بالمهجية ، مولع بها فى كل مادة ودرس . . وهى فى هذه اللغويات ـ على ما تبينا ـ أوجب وجوباً ، وأشد لزوماً .

ولقد اتسق القول فى بيانها ، حتى لأرجو أن تكونوا قد لمحتم من ثنايا المواقف المتعددة ، فى هذه المحاضرات القليلة ، ما وجهة الدرس المصححة . . وانتهيتم فيها إلى إبراء هذا الدرس ، من مقررات قديمة ، لا أصل لها ولا أساس . . ومن تفصيلات عديدة ، لا وجه لها ولا حق . . وتهيأتم بذلك لالتماس شىء آخر . . بعدما شعرتم الشعور الحق بالحاجة إلى هذا المطلوب . . وشعوركم بذلك ـ كما كررت ـ هو أهم ما أبتغى ، وما أستثير . . فإن فقدان مجتمعنا هذا الشعور بما ينبغى أن يتغير . . وما يجب أن يطلب يتركنا فى جو بليد من التفاهة . . يجعل الناظر إلى حالنا ، وحال الدنيا حولنا يدهش كيف نرضى بما نحن فيه . . وكيف يتبجح متحدثون

منا ، مسئولون وغير مسئولين عن حديث التقدم والنهضة ، والتطور ــ الخ . . ! !

ومعذرة لما مضى من حديث كاد يكون جامحاً ، فى ميدان درس علمى ، لافسحة فيه إلا للحقائق اللغوية ، عن مشكلات حياتنا اللسانية . . ولكنكم قد سمعتم أول ما سمعتهم : أن الخطر اللغوى على حياتنا إنما هو مبعث أشنع الخطر على مجتمعنا . . ثم سمعتم آخر ما سمعتم أن الشعور بما ينبغى أن نطلبه وأن نغيره هو أهم ما يتقدم هذا الطلب ، وذاك التغير . . ولن يثير الشعور إلا مثل هذا الحديث العالى بحدوه الإيمان الحار ، ويثيره الإندفاع النفسى ، والحماس الروحى . . الذى يفيض عن غير تنبه . . فلا يستطاع كبته .

***

وبعد .. فإن الذى قدمنامن مثال للكمال اللغوى والتفضيل للعربية يظل على مدى الدهر يجرى ويتداول ، فهذا صاحب « المزهر » بعد بضعة قرون من عهد ابن فارس يكاد يلحص أقواله كلها عن فضل العربية تحت عنوان أنها النوع الثانى والعشرون من أنواع علوم اللغه وهو : معرفة خصائص اللغه[1] على أنا لا نجزع من هذا مثل جزعنا عن محدثين قد شاموا ما أشرنا إليه من منهج لغوى ، وحالت الحوائل بين عقولهم وبين هذا الحديث الساذج عن إنفراد العربية بما يعزلها عن لغات الدنيا ، ويرفعها عن سنن الكون اللغوية ونواميس الحياة اللسانية .. نعم .. إننا نخشى مثل هذا الإندفاع فى مجال الانفراد الحيوى ، والخوارق الطبيعية حين نجد من يحدث اليوم بمثل ما سمعتم عنه فى مجال التهذيب اللغوى ، لأن ذلك القول يشغلنا بخطأ لا معنى للانشغال به الآن ، وفى الدنيا حولنا من التقدم الثقافى ، ما يكشفه ويهدمه .

(١) المزهر ١ : ١٨٧ ــ ٢٠٠ ط الأزهرية سنة ١٣٢٥ هـ

وبقدر اشتغالنا بهذا الوهم الخاطىء ننصرف عن العناية بالصحيح النافع ، الذى أهيب بكم أن تتمثلوه ، وتشعروا به شعوراً واضحاً قوياً فعالا .

ولا أطيل عليكم .. بل لا أرهقكم بسماع الكثير من هذا التفضيل والكمال اللغوى المحدث .. وحسبكم اثارة منه تزيدكم نفوراً ، وتملؤكم بغيره شعوراً .. فالمرحوم السيد مصطفى الرافعى الذى سمعنا ـ قريباً ـ بعض قوله المسرف ـ بلا حجة ـ فى التهذيب اللغوى لا يلبث فى هذا المقام من كمال العربية وفضلها أن يلخص [1] ما فصله ابن فارس فى الصاحبى ، مما اجتزأت منه بمثل الإعراب السابق .. ثم لا يكتفى بذلك بل يضفى على العربية من الجو الفنى ما يضعك فى غمرة من إعجاز العربية، وخلافها على سنن الله فى خلقه ، وتفرد الطبيعة العربية ، والبيئة العربية بما شاء الله له أن يفردها به ، ويرفعها إلى ما وراء الطبيعة كقوله [2] : « .. بيد أن الحكمة ألقت فى طباعهم هذا النظام اللغوى ، وجعلتهم بحيث ينساقون فى سبيله إلى الكمال ، لا تعترضهم عقبة ، ولا يصرف وجوههم عنه صارف من نظام المدنية فمضوا على ذلك ، واللغة تتخطى لهم درجات الاجتماع واحدة فواحدة ، حتى انتهت بهم إلى الوحدة الجنسية فتغير مجموعهم ، وانصب على العالم بقوة جديدة فنية صادفت دولا قديمة بالغة ، فصدمتها تلك الصدمة التى هدمت التاريخ ، وبنى بعدها بناء جديداً ، ولولا اللغة ما انتظم أمر العرب .

وهكذا تبعت الحياة اللغة ، ولم تتبع اللغة الحياة ، وصارت اللغة هى العامل الاجتماعى الأوحد فى نهضة العرب الإسلامية ، ولولا اللغة ما انتظم أمر العرب .. !!

---

(١) تاريخ آداب العرب ١ : ٢٣١ ـــ ٢٣٥

(٢) المصدر السابق ص ٣١٧

وهذا شيء لايدلنا بمناقشته والوقوف عنده . لأنه ليس مما يدخل فى حساب الطبيعة . ونظام التمدن الذى يحدث عنه الرافعى فى اللغه . . ! !

ومازال الرجل ينثر فى الجو الغرائب والمعجزات من أمر هذه اللغة يمثل قوله[1] « . . وهذه اللغـة يوشك أن يكون أمرها معجزاً . على ما رأيت ، بحيث لا يغلو فى رأينا من يقول : إنها بسبيل من الأوضاع الإلهية فى التوفيق والإلهام ، لأن أثر ذلك قد ظهر فى القرآن » . . !

كما يقول[2] « . . ويندر أن تجد ذلك كله ـ طرق الوضع ـ فى لغة من اللغات على مقدار ما تجده فى العربية ، فلا جرم كانت حرية بأن تـكون منـاط الإعجاز لأنها الخلقة اللغوية الـكاملة » .

والغريب أن هذا الذى يترك الأمر للتوفيق والإلهـام وينتهى به إلى الإعجاز يمر بخاطره الوضع العلمى لفهم خصائص العربية فلا يجده إلا أمنية المتمنى ، وإسراف الآمل اواهم . كما تجده فى قوله عن الاشتقاق[3] :

« ولو أن أحداً عكف على هذه اللغة فتتبـع ألفاظها ، وتدبر وجـوه اشتقاقها ، وتفقد مواقع كلام العرب ورتب صيغها وأوزانها ، على ما تقتضيه أغراضها ، بحيث يستقر كل مثال منها فى نصابه ، ويرد إلى حيزه لجاء من ذلك بعلم يكشف عن كثير من أسرار لوضع »

فهو بما وصف من هذا التتبع قد لمس موضع الحاجة ، وأمسك بأول الخيط فليته ـ على الأقل ـ قد طالب الناس بمثل هذا الدرس ! ! . . لـكنه لا يلبث أن يدخل

(١) الرافعى المصدر السابق ، ص ١٧٤ .
(٢) الرافعى المصدر السابق ، ص ١٦٨ .
(٣) الرافعى المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

فى غيبيته ، فيقول بعد ما مضى مباشرة فى وصف عمل هذا الباحث المتتبع كما وصفه ، ما عبارته . . « ويهتك عن أسرار الحكمة المستكنة فى دقائق هذه اللغة العجيبة ، التى يزيد العجب منها أنها لغة تلك العقول الفطرية ، والفطرة وإن كانت دائماً تختص بمسحة آلهية ، إلا أنها تكون أصل الكمال فى النفس لا نفس الكمال» .. وهكذا لعبت برءوسنا الألفاظ المترددة المتراقصة ، ودخلنا فى جو من الشطح تحدث فيه عن المسحة الإلهية العجيبة .. والعجب الزائد .. ونسينا وتركنا كل ما رنونا إليه رنوة خاطفة من البحث والدرس .

***

ذلكم هو ما أكثرت فيه لألفتكم إلى خطره ، وأمثل لكم ما أخشاه من سوء عقباه ، أمس واليوم .

ولئن كان مثل هذا يكون من متقدمى المحدثين ، منذ قرابة نصف قرن من الزمان فليس من اليسير أن يكون من متأخرى أولئك المحدثين ، بعد أن استوثقت الصلة بالدنيا العالمة ـ ثم أن يكون ذلك من لغوى جليل ، قد تمثل المنهج اللغوى تمثلا صحيحاً ، وجال فى الميدان اللغوى جولات موفقات ، وهو مع ذلك يقول(١) « ... الواقع يشهد بأن العربية تنفرد باعتبارات هيأت لها مذهباً فذاً ، لا يتأتى تفسيره بمذهب اللغات سواها ، بل ربما كان هذا المنحى يزيدها غموضاً مطلقاً ، فكيف يجيز مثل السيد عبدالله العلايلى ، صاحب الجهد الكبير فى المعجم ، وصاحب الدراسة اللغوية الصحيحة : أن نخرج العربية على قوانين اللغات ، التى هى فى حساب الاجتماع اللغوى من وادى القوانين الطبيعية ... إلى حد كبير .. كما أنه يقول(٢) « ... إن العربية القديمة كانت أسمى من تفكير العرب القدامى » .. فكيف يتفق أن تكون الصلة بين اللغة وأصحابها على هذا الوجه من الاضطراب والتعاكس ، وهى فى الحساب الصحيح

(١) السيد عبد الله العلايلى : مقدمة لدرس لغة العرب ص ٢٣٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٦١

ليست إلا صدى وانعكاساً لحالهم .. ومن هذا الوادى قوله[1] : « .. نقف منه على مقدار ما تزخر به الألفاظ من حضارة عربية طواها التراب فى غفلة التاريخ ، واحتضنتها الرمال فى شرَّة وشرَه » .. فما دامت للقوم هذه الحضارة ، ولا بأس عليه فى ادعائها ، نعم كانت لغة أهلها أسمى من تفكيرهم .. ! ! وإذا كانت اللغة بحيث تمثل حياتهم ذلك التمثيل ، وتكشف عن مهتضم حضارتهم ، فما ذلك إلا لأنها تساير حياتهم خطوة خطوة ..

والسيد صاحب هذه الكلمات لغوى منهجى نرجو أن تتسع هذه المحاضرات نعرض فكرته عن تطور العربية ، وموازنتها بغيرها من أحاديث هذا التطور ... لكنه رغم ذلك كله يتسمح قلمه بمثل هذه العبارات ، التى ترفدها عبارات كثيرة له عن سموق العربية وكمالها . وما نخال ذلك كله إلا صدى لما يتنفس به الجو حوله . مثل ما سمعتم ، عن فضل العربية . وكمال العربية ، وانتهاء العربية إلى ما لاشىء بعده .. !

ونختم هذا الحديث عن كمال العربية بكلمة للسيد اللغوى أنستاس الكرملى ، فى بيان حيلولة هذا القول بالكمال والسمو دون الدرس والبحث إذ يقول[2] : إن الناطقين بالضاد ، الذين أمعنوا فى تدبر لغتهم وتقليبها على مناح ووجوه شتى ازدروا بكل لسان سواها ، ظانين أنها فوق كل لغة ، ولا يمكن أن يدانيها شىء من كلام البشر ، فكان هذا الاعتزاز ازدراعياً ، بل ناعياً كل تبحر فى معارضتها بسائر اللغى والألسنة » ... تلك حقيقة جرى بها قلم الرجل ، وإن كان فى غير ذلك الموطن من مسرفى المفضلين . . !

وإلى هنا ندع كذلك حديث التفضيل اللغوى غير مستمسكين بشىء منه ، لنصغى فى إخلاص للحق صادق ، وشعور قوى أصيل بالحاجة إلى المنهج المحرر ، فى مواجهة مشكلاتنا اللغوية ... نصغى للكلام عن : —

---

(١) العلايلى ، المصدر ذاته ص ١١٤ .

(٢) الاب أنستاس الكرملى — نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها — ص ١٥٥ .

التطور اللغوى للعربية

وما من شك فى أنكم فى أثناء ما عرض عليكم من هذا التشخيص لحال العربية . والفحص لمقررات الأقدمين فيها ـ عن تكونها .. واستكمالها .. وكمالها ـ قد انتبهتم إلى أنى كنت أدفع الحديث دفعاً واضحاً بين الحين والحين إلى هذا التطور اللغوى .. وألفت إليه .. وأعرف به أصلا واستطراداً ... وذلك لأسباب منها :

أولا : أن هذا التطور هو الجذر العميق للمنهج العلمى اللغوى .. فنى رسوخه وتأصله رسوخ وتأصل لهذا المنهج .

ثانياً : أن هذا التطور يقتضينا عملا جليلا جباراً ، فى الدرس اللغوى للعربية ، كشفاً لمسارب سيره ، ومسالك تنقله ، ليكون حديثنا عن هذه العربية حديثاً صحيح الأصل ، سديد الخطوات ، وليكون عملنا فى خدمتها أو إصلاح شىء من أمرها صحيح الأساس ، موفق الاتجاه ، محققاً لغاية . . حين يأخذ الوجهة التى يدل التطور على اتجاهها إليها .

ثالثا : وهو الأقرب ـ إن هذا التطور يواجه بالمعارضة تلك المقررات التى يقول ـ غير قليلين عنها ـ إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون .. فطمعت أن يكون لهـذا الدأب فى حديث التطور ما رجوت وأرجو له ، من تأصيل شعوركم بأهمية تصحيح المنهج اللغوى ، وبأنه ضرورة اجتماعية حيوية ، يجب أن تسبق كل محاولة لنا فى درس مشكلات حياتنا اللغوية .. أو محاولة إصلاحها .

ومن أجل ذلك أخص هذا التطور اللغوى للعربية بالحديث غير الموجز ، فيما بقى من هـذه المحاضرات ، راجياً أن ننتهى منه إلى ما يحقق المرجو من بعث شعوركم ، واستثارة وعيكم .

وأبدأ من هذا الحديث بأن أضع بين يديكم :

قضايا تطورية

لعل أكثرها من غير ما القم سماعه عن العربية وحياتها ، وسير الدنيا بها . .
فمن ذلك :

(١) أخذت اللغة العربية طريقها التطورى فى الحياة ، تمر من دور إلى دور ، وتنتقل من حال إلى حال . فتتغير تغيرا عاماً شاملا ، فى أصولها وكلماتها ، ودلالتها ، وأسلوبها ، ومنهجها البيانى ، فى شتى أوضاعه ومختلف صوره . وحتى ظهور الإسلام لم تكن قد استقرت على وجه التمام . بل ظلت غير خالصة من علائق الفوضى فى غير ناحية ، كالموازين ، وصيغ الجموع ، وأبواب الأفعال . . الخ .

وذلك النقص لأسباب انقلابية مفاجئة ، وقفت بها عند حد ما نراها مسطورة فى الكتب المعجمية . . وقفت اللغة ، ولم تنته ، فكان لها انجذار مفاجىء أوقف ما فيها من عناصر فعالة . . وقد بقى فيها شيء من مظاهر الطفولية . اجتهدت العربية بالتخلص منه ، ولكن بقى على بعض صوره . والمسافات الواسعة ، التى بقيت واضحة فى منطق القبائل الشتى ، ومنطق القبيلة الواحدة ، حتى ذهل من كثرتها علماء اللغة جميعاً . وراحوا فى تعليلها على مذاهب متباينة ، وابتدعوا لها وجوهاً من الاختلاف القبلى وتداخل اللغات ، والضرائر والشذوذ ، والغلط . وهى من الوجه الحق ليست بأكثر من كونها آثراً من آثار التطور العامة ، الذى تخضع له كل لغة فى سيرها الارتقائى ، وتبقى هذه البواقى والمتخلفات ، لأسباب مكانية وظرفية ، أو لأن التطور لم يتم دورته.

والشيء الذى لا يمكن إبداء الشك فيه : أن العربية لم تستقر لعهد القرآن

على وجه نهائى . وكانت تصل إلى مستوى بعد ذلك لو ظلت فى محيطها بجزيرتها دون خروج ، لكن خروج العرب من الجزيرة ، فى الحركة الإسلامية منع ذلك(١) .

(ب) العربية التى لم تستقر لعهد القرآن على وجه نهائى . كان أزهى عصورها فى خلال القرون الأولى بعد الهجرة . على رأى(٢) .

(حـ) ظلت العربية عرضة للتطور المطرد فى مختلف عناصرها : أصواتها وقواعدها ، ومتنها ، ودلالتها . . ومن التطور الطبيعى المطرد ما يكون من تطور أعضاء النطق فى الإنسان فأعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، بل عما كانت عليه عند آبائنا المباشرين . . ومن ثم لم يكن بد من أن يحدث فى أصوات كل لغة انحراف ما ، فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف . . وفى هذا التطور تتغير أصوات ، وتسقط أصوات . . وقد أحدث هذا التطور للأصوات انقلاباً كبيراً فى عالم اللغات ، فقد كان من آثاره انقراض طريقة الإعراب ، فى كثير من اللغات التى كانت تسير عليها ، كالعربية واللاتينية ، وما إليهما .

ولعل أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية هو : ما أتى جميع الكلمات العربية وانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب . فإن أصوات اللين القصيرة (المسماة بالحركات وهى الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق أواخر الكلمات قد انقرضت فى جميع اللهجات

---

(١) من : مقدمة لدرس لغة العرب : للأستاذ عبد الله العلايلى ، جمعا من الصفحات (١٣ و ٥٦ و ١٩٦ و ١٧٠ و ١٨٠ و ١٨٩) بتقديم وتأخير ، ومع أيسر تصرف فى بعض المفردات ، وما عداه محتفظ بلفظ المؤلف .

(٢) برجستراسر : التطور النحوى للغة العربية ص ٣ .

العامية المتشعبة عن العربية (عاميات مصر ، والعراق ، والشام ، وفلسين ، والحجاز ، واليمن والمغرب . الخ) سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب ، وما كان منها حركة بناء ، فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات ساكنة الأواخر(١) .

(د) هذا التطور المطرد يخضع فى سيره لقوانين ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لا يد لأحد على وقف عملها ، وتغيير ما تؤدى إليه ، فليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص أو يسيروا بها فى سبيل غير السبيل التى رسمتها لها سنين التطور الطبيعى المقررة .

واللغـة العربية مثل لذلك ، فعلى الرغم مما بذل فى صيانتهـــا ، والاحتفاظ بوحدتها ، ومحاربة ما يطرأ عليها من تحريف ولحن وخطأ ، وعلى الرغم من الأسوار المنيعة التى أقيمت لحمايتها من علوم اللغة ، وما وضع لمتنها من مئات المعجمات التى وصلت بها لضبط الأصوات ، وتحديد الألفاظ والدلالات . بذلك وبتسجيل الآثار الأدبية إلى درجة منقطعة النظير ، وعلى الرغم من أن هذه الجهود كانت مؤيدة بالعقيدة ، ومرتكزة على دعامة من الدين ، فان اللغة العربية على الرغم من هذا كله لم تلبث أن أفلتت من جميع الأغلال ، وتسلقت الأسوار ، وسارت فى السبيل التى أرادتها على السير فيها سنن التفرع اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللغات العامية(٢)

(ه) ثبات نواميس لهذا التطور يوجب على كل من يحاول إصلاحاً لغوياً أن

---

(١) اللغة والمجتمع . دكتور على عبد الواحد ، بجما من الصفات (١ /٤/٤٩/٦٥ر٧٨) بتقديم وتأخير ، مع الاحتفاظ بالعبارة .

(٢) المصدر السابق من صفحات (٧٨ر١٣٢) .

يعمد قبل كل شيء إلى دراسة حياة اللغة ومناهج تطورها ، حتى يتميز له الممكن من المستحيل ، ويتبين له ما يتفق مع السنن الكونية ، وما يتنافر مع طبيعة الأشياء ، حتى إصلاحاته مسايرة لهذه الطبيعة[1] .

* * *

تلك قضايا تطورية قصدت أن تكون مما ردد فى البيئة العربية ، بعصر أو بغيرها فى خفوت أو جهرة . وسقتها إليك بعبارات أصحابها ، وجرتهم شرقيون عرب ، لئلا تكون مع ذلك كله غريبة الوجه ، واللسان عنك . فننظر فيها بإزاء ما سلف من مقررات لغوية سابقة تبعد عن تلك القضايا بعداً واضحاً . فيلفتك هذا الاختلاف البين . ذلك اللفت القوى ، بل العنيف الذى رجوت أن أصل إليه منذ صح العزم على إلقاء هذه المحاضرات القصيرة المدى . فيكون ذلك الالتفات باعثاً عنيفاً لإصغائك إلى الحديث المصحح للمنهج اللغوى ، وإلى قضية التطور منه بخاصة .

ولا أدخل فى تفصيل ، أو تقييد لهذا التطور ، وقضاياه إلا بعد أن نسلك فيه ما سلكنا فى عرض المقررات القديمة فنلتمس فيه رأى الاخصائيين ، الذى عولنا منذ أول الأمر على أن ننتفع بتذاكرهم التى أعطوها هذا الكائن المفحوص ، ثم نلتمس كذلك ما فى البيئة العربية ، من أصداء للحديث عن التطور اللغوى ، وكيف تلقته وإلى أى حد بلغت فى فهمه وعرضه . وبذلك نكون قد مهدنا التمهيد الكافى لعرض مفصل إلى حد ما ، عن فكرة التطور اللغوى للعربية .

واستمع للحديث عن :

---

(١) المصدر ذاته ص ١٣٨ .

تقدير التطور اللغوى

فنى سجل أولئك الإخصائيين مقال أحسبه الوحيد (١) بعنوان فى هذا التطور هو : تطور الألفاظ والتراكيب والمعانى ، وتخالك ستستقبل تحت هذا العنوان الجامع روائع من الفكر ما دام الحديث عن تطور الألفاظ والمعانى جميعاً ، وعن تطور التراكيب أيضاً . ولكنه لن يستقبلك إلا الحديث فى إجلال عن المضاف والمنسوب الذى جاء به الثعالبى فى كتابه المعروف بهذا الاسم ، وإنه كله ما خرج عن سحر كيد عربى . ولفظ عربى . . . أما فى هذا العصر فالسيد الخالد يقول : وأكثر التراكيب التى جاءنا بها العصر الجديد إذا ألقيته على مسامع العربى الأصيل اضطر إلى أن يفكر ساعة ، وربما ما خرج بعدها بشىء يصور المعنى تصوراً حقيقياً .

وما يلبث أن يصرخ الخالد : « لا يا ســـادتى ان سمعى لم يتألم قط أكثر من تألمه من لفظ أو إضافة » جاءنا بها المشتغلون بعلم التربية ، فنسبوا إلى التربية « تربوى » وأتونا بعد ذلك بألفاظ وتراكيب لو حلفنا لأهل عصور زهو العربية بالطلاق والعتاق أنهـا عربية ما صدقوا ولا آمنوا ، جاءنا متفاصحو المترجمين بتركيب : النزعة الواقعية ، القوة الوجدانية ، الذاتى الموضوعى الاقليمى ، الفكرة الأساسية ، الفكرة الرئيسية . ويمضى يسرد فى نحو صفحة كاملة تعبيرات من هذا الطراز . . . لا ذنب لها ولا عيب فيها إلا أن السيد الخالد رحمه الله يعيش فى عصر الرقيق والحريم ، ويحلف بالطلاق والعتاق . . . ويحدث عن التطور ليمجد الثعالبى والجاحظ ويقرر أن الواجب ألا تنشر إلا ما سلم كل السلامة من العوج ،

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٧ : ٣٠ .

ولم يسبق للسان العربى أن جرى به ، ثم يستنجد مرتعداً بزملائه قائلا : فبالله ألا تصابون بالبرداء وقاكم الله شرها إذا سمعتم مترجماً يقول : هـذا الشعور ليس سلبياً بل إيجابياً . تربية فلان الإيجابية العالية ، المركز الاستثنائى ، المبدأ الانقلابى ، دال بها على جوهر قومى مركز ، التركيز فى التقسيات . وما يزال فى مثل هذا حتى يقول : وتـكثر التراكيب والألفاظ النابية عن مناحى البلغاء ، فى كلام أهل القرن الماضى ، ولا نرى كل وسط فى نقله وتصنيفه إلا معتذراً عن جهله بأنه يكتب الـكتابة التى تروق جمهور الناس ويهزأ فى باطنه وأحياناً يبدو هزؤه على سحنته ممن يكتب كتابة عربية فى الجملة ، ويصمها بأنها كتابة جامعية أو مشايخية نسبة للجامعة أو لدار العلوم .

ولا ندرى متى كانت الجامعية إمعاناً فى العربية الصحيحة ، مقرونة بالمشايخية . ويعود السيد ليتحدث عن التعبيرات الممتعة المسعدة التى هى من ألفاظ وتراكيب القرنين الأولين للإسلام . وقد استمتع بها فى خمسة كتب للقدماء نشرها ، وقد حوت من هذه المعانى أشياء كثيرة . ويذهب فيشنف الأسماع ويدفىء الأجسام — فلا تصاب بالبرداء — بذكر ما فى هذه الـكتب واحداً واحداً من تلك الألفاظ التى صارت من هذا العصر إذا سمع بعضها فـكأنه يسمع ألفاظاً أعجمية ، وإذا حاول الـكشف عنها فى المظان مل وكل . . ويشكو من أنا قد بلغ بنا الضعف فى لغتنا أحياناً أن صرنا إلى حالة إذا حاولنا قراءة شعر جاهلى فـكأنما نقرأ لغة غير لغتنا وتقع فيه على ألفاظ نجد فى بعض الألفاظ الفرنجية بها أكثر مما نجـده فى هذه الألفاظ العربية . وبعد أن يورد هذه الحقيقة الصادقة فى معرض اللوم الذى لا يعترف بالواقع يتقدم فيملأ صفحات بالألفاظ السهلة مما فى هذه الـكتب الخمسة التى نشرها فترى من

هذه الألفاظ التي هي عنده أسهل الألفاظ مثل العقدة : العقار ، يقال اعتقد فلان عقدة إذا اشترى ضيعة[١] . . والحقرية المذلة[٢] . . والكنى (بالضم) مؤخر العجز في كل شيء والجمع أكساء[٣] والبزيون[٤] ضرب من نسيج البز ، أو من رقيق الديباج . . كما يذكر الزيرباج — الوارد من المأكولات ويصف طبخها — وفي أسمائها ما يشعر بطعمها . وبعد صفحات يختم بقوله : وهذا ما أمكن اقتباسه من ألفاظ الأسفار الخمسة التي نشرتها فكم في الكتب المطبوعة والمخطوطة من ألفاظ أنسيناها ونحن لها محتاجون كما أنسينا من الحلويات اسم العصيدة والخبيصة لما جاءنا من الفرس الفالوذج واللوزينج ، ثم أنسيناها لما جاءنا الترك برونى وكلاج ، ثم أنسيناها جملة لما أتانا الإفرنج بيريوش وبودنج والله أعلم ما يدخر الغيب لنا من ألفاظ في المستقبل . لكنه وهو يحدث عن ضرورة سير الحياة وتجددها وتغيرها وقد حدث قبل عن موت الألفاظ وحياتها — لا يحدث عن هذا كله حديثاً ينتهي إلى شيء من إقرار سنن التطور أو الاستعداد لدرسها و . . الخ . بل هو يغتبط بتجميد لغة الكتابة واستطاعتها أن تسع هذه الكلمات المتجددة كتجدد أصناف الحلوى وإن لم تتعامل مع شيء منها . بل تظل جامدة محتفظة بأصولها . وذلك إذ يقول في وضوح ما نصه :

« وفي هذا دليل آخر على حيوية هذه اللغة . وقابليتها للتطور بحسب الزمن مع الاحتفاظ بأصولها وقواعدها وبالفصيح من مفرداتها وشواردها ! ! »[٥]

وبمثل هذا يقرر الاخصائيون الذين نريد الانتفاع بهم في تقدير التطور اللغوي : أن التطور يتم مع الاحتفاظ بأصول اللغة وقواعدها وبالفصيح من مفرداتها وشواردها ولا ندري أي تطور هذا الذي يكون بلا تغير .

(١، ٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٧ : ٣ — (٣، ٤) المصدر نفسه ص ٣٥

(٥) مجلة مجمع اللغة العربية ٧ : ٣٧

ويخرج من العنوان الضخم عن تطور الألفاظ والمعانى والتراكيب بغير معنى فى التطور ! وذلك من المقال الوحيد فى مجموع ما عرفت من أعمال المجمع .

على أنك لا تستطيع أن تنسى أن هؤلاء المجمعيين قد ألقى إليهم ، وقيل فى ناديهم ما هو من دقائق التطور اللغوى ، ومظهر الإحساس الدقيق فيه ، ومن ذلك مثلا ما حدثهم به الدكتور ابراهيم أنيس — وهو عندهم خبير بلجنة اللهجات — تحت عنوان : أبواب الثلاثى[1] وناقشوه فيه ، وهو يحوى معانى فى التطور تلفت النظر مثل قوله : إن الأفعال المعتلة قد مرت بها أطوار باعدت بينها وبين أبواب الفعل الصحيح وصبغتها بصبغتها الخاصة .

ومثل ما حدثهم به عن القياس الخاطىء ، وعمله فى انتقال اللغة بين الأجيال ، كما أشرنا إلى بعضه قريباً ، فقال عن هذا القياس : هو ما تقع فيه الأجيال الناشئة ، ثم يشيع بعد ذلك حين يصبح الصغار كباراً .

وهذا مما نشر ، ولا نعرف شيئاً عما لم ينشر من أبحاث ، ربما تكون قد ألمت من هذا التطور بشىء . لكننا فى حدود ما نشر — لا نرى للمجمعيين اتجاها عاملا نحو درس التطور اللغوى للعربية ، والانتفاع بما يكشف عنه هذا الدرس من حقائق ذات أثر كبير ، فى فهم مشكلات اللغة وعلومها — كما أنها ذات أثر كبير فى المحاولات الإصلاحية للغة وعلومها .

على أننا اسرافاً فى الإنصاف لا ندع هذا المقام دون أن نتحدث عما لرجل منهم يبدو صاحب اتجاه إلى فكرة التطور وإن كان نشاطه خارج هذا المجمع ،

---

(١) ألقى هذا البحث ونوقش فى ١٩٥٠/١/٩ ونشر فى العدد الثامن من مجلة المجمع ص ١٧١ .

إلا أنا نحسبه للقوم ، وإن لم يحدث فيهم أثراً ، هذا الرجل هو الأب انستاس الكرملى ، فإن للرجل من الثقافة اللغوية نصيباً واضحاً ، وله من النشاط فى خدمة العربية بمجلته « لغة العرب » وما كتبته فى هذا السبيل ما ينبغى الوقوف عنده والنظر فيه ولا سيا كتابه الذى يحمل عنواناً ، من صميم هذا التطور اللغوى ، وذلك هو الكتاب المسمى « نشوء اللغة العربية ، واكتهالها » وهو اسم يشمل الحياة كلها بل يوشك أن يمتد إلى الحياة الثانية للعربية فى الدار الآخرة ، فليس بعد الاكتهال إلا الشيخوخة الفانية .

تنظر فى هذا الكتاب فترى فيه أثارات قصيرة موجزة عن نشوء العربية يخلط فيها بين بيان الفكرة ، وادعائها للأقدمين فى غير وضوح . . . ثم لاشىء عن تطور لغوى يحدث عن عصور حياة العربية وما تنقلت به فى كل عصر ، فتغيرت أى تطورت .. ولا فكرة جامعة تربط بين ما فيه من فصول متفرقة ، لو التمست لها معنى جامعاً لوجدته شيئاً غير التطور اللغوى ، وتقلباته ، وانتقالاته ، وأدواره وعصوره ، وما إلى ذلك وهذا المعنى الجامع لما فى الكتاب هو ما لخص به المؤلف كتابه فى ص ١٥٥ ، وهو المعارضة للعربية بسواها من اللغات وهو ما كتب فيه الفصول العدة : عن تناظر العربية واللغات ، تناظرها واليونانية . تناظرها واللاتينية — وهذان التناظران منشوران فى مجلة المجمع — ثم تناظرها والفارسية . . واللغات المندثرة القديمة . . والسكسونية . الخ ، كتبت بطريقته واتجاهه المعروف من رد كلمات هذه اللغات الأخرى إلى جذور لغوية عربية . . مما يطمئن إليه غير واحد من الكتاب ، وأخذوه على الرجل فى مجلة مجمع اللغة العربية نفسه . . وهو مالا نتبعه بشىء فنخرج عن الأصل الأول ، الذى فرغنا للحديث عنه ، وهو التطور اللغوى فى أولئك الاخصائيين — ومن أجله عرجنا على كتاب الاستاذ

انستاس منهم فإذا هو كما انتهينا — لا يبلغ فى الحديث عن التطور مبلغاً ، مما عرفت العربية مثله فى درس الغربيين ، بل فى دروس بعض الشرقيين أنفسهم ، على ما سنضع بين يديك من ذلك قريباً ، وسنعود إلى بيان ما خسرت الحياة اللغوية والاصلاح اللغوى بإهمال هؤلاء الاخصائيين العناية الموفورة بتطور اللغة تفكيراً ودرساً بعد أن ننظر إلى :

التطور اللغوى

فى البيئات الأخرى

ونريد بها ما عدا بيئة أولئك الاخصائيين المجمعيين . نقسم تلك البيئات إلى عامة ، وخاصة . . ونريد بالعامه بيئات التأليف ، والتفكير ، والتنظيم للغة العربية فى الحياة ومراحل التعليم التى قبل العالية . . ثم نريد بالخاصة البيئة العليا فى دراسة العربية وبحثها كالجامعات وما إليها .. إذ عندها يرجى الطموح للغد الأرق ، والتشوف للمستقبل الأسمى . .

وسنلم من أمر هذه البيئات بالمصريات منها ، وبما نعرف من غير المصريات من الأقطار العربية ، مقدرين أنا لا نعرف من تلك البيئات غير المصرية ، كل شيء رغم قوة الاتصال الفردى والاجتماعى . . فلا ييتئس أبناء تلك البيئات إذا ما فاتنا من نشاطها شيء ، أو خفى علينا من التيارات اللغوية شيء ، فذلك شيء نقدره منذ الآن ونشعر به شعوراً واضحاً .

وفى البيئات العامة من حيث التأليف المدرسى أو ما إليه فى الشئون اللغوية لا تجد ذا قيمة من الحديث عن التطور اللغوى للعربية ، بل نجد عكس هذه النظرة الصحيحة فجمهرة الكاتبين يشعرون أن لغة الحديث والحياة التى تحيا بها الملايين فى الأقطار العربية ليست فى شيء من الصلة بالفصحى ، فضلا عن أن تكون تطوراً لها .. وإنما هذه العامية رجس يجتنب ووباء يتقى . وهكذا تسمع الكثير من قبل قول القائل عن العامية :(١)

وكان منشؤها من اضطراب الألسنة ، وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة .

(١) السيد مصطفى الرافعى تاريخ آداب العرب ١ : ٢٣٦ .

وكان رجال العربية فى وزارات المعارف العربية – إلى عهد غير بعيد – يعتبرون لغة الحياة ذلك الاعتبار الوبائى ، ويطاردونها مطاردة قاسية فى محادثة التلاميذ – حتى الأطفال منهم وفى حديث أولئك وكتاباتهم ولا يدعون فى هذه المطاردة شيئاً من الهوادة أو التسمح يعين على عقد هدنة بين اللغتين . أو يهيء للفصحى نفسها فرصة الاستفادة بشيء من توسيط تلك اللغة الحية العامة .

وكان الرأى السائد إلى مدى قريب أن القضاء على هذه اللغة الحية واجب مقدس ، وفرض عين – وكان ذلك القضاء يبدو ممكناً لأصحاب العربية فى كل مجال .. بل ما زال هذا هو منطق الاخصائيين المجمعيين إلى عهد قريب أيضاً .. ولعله قد تغير أخيراً عند بعضهم لا عندهم جميعاً .

وكذلك كان التأليف ، والتفكير ، والتنظيم لتعليم العربية يعادى فكرة التطور وينكر كل مظهر لها فضلا عن أن يشعر بالتطور أو يخدمه بالدرس أو ما يشبهه .. حتى هبت رياح فنية واجتماعية تشجعت على مخالفة هذه الخطة فتغير الاتجاه نوعاً ما ، وإن كان لا يزال فى الميدان اليوم من لا يدين إلا بالفكرة القديمة فى إبادة لغة الحياة وإنكار أن يكون لها فن قولى .. بل إنكار أن يكون لها – فى واقع الأمر – صفة اللغة – أو شيئاً من صلة بما يسمونه الفصحى . ولا نطيل ببيان شيء من هذه العوامل، لأنا لسنا فى مجال تاريخ الحياة اللغوية ، بقدر ما نحن معنيون بتفهم مشكلاتها .. والتفت إلى ما يبصر بأسبابها ويهدى إلى التوفيق فى علاجها – وقد آثرنا فى ذلك العناية بالتطور قبل غيره من تصحيحات المنهج .

وعلى رغم ما فى البيئات العامة من ازورار عن التطور – كما رأينا – فقد ظهر تأليف عن فكرة ناضجة فى التطور نقشها لبنان وتبنتها مصر وفيها طبعت ، ولم تتأثر بها هذه البيئات العامة ولم يبدلها فيها توجيه . وسنعرض لها قريباًونقف عندها طويلا بعد الحديث عن :

التطور فى البيئات الخاصة : وهى بيئات الدرس العالى فلا تحسب أن من المعاهد غير الجامعية كدار العلوم أو الأزهر مثلا من اتجه إلى شىء من أمر هذا التطور اللغوى — لأن هؤلاء القوم فى المعهدين يضفون على اللغة من الاعتبارات القدسية الدينية مالا يستطيعون معه أن يروا بصيص نور من غير هذا الأفق ، فهم إلى الكمال والتفضيل المسرف يتجهون وأما الجامعات فان جامعة القاهرة ـ وهى أقدمها ـ قد سبقت كلية الآداب فيها ، بنشاط قسم اللغة العربية إلى نشر هذه الآفاق العلمية فى درس العربية من دنيا أولئك المستشرقين الذين كانت تتخذ منهم أساتذة أصليين حيناً وأساتذة زائرين حيناً كما سنحت لها بذلك فرصة .

وكان من أجلاء أولئك الأساتذة الزائرين . المغفور له المستشرق الكبير برجستراسر . أستاذ اللغات السامية بجامعة ميونيخ . الذى ألقى فى قسم اللغة العربية سنة ١٩٢٩ سلسلة محاضرات عن التطور النحوى للغة العربية تعتمد على تلك الخبرة الصادقة باللغات السامية ومقابلاتها ، وعرض المحاضر فيها للحديث عن الحروف ، والأبنية ، والتراكيب كما تحدث أخيراً عن المفردات اللغوية فأجمل منهج دراستها ، وألم بطرف احتمله الوقت ، ولم يتسع للوفاء به ، وكان أساس منهجه فى هذا التناول هو الحركة التطورية لكل ماعرض له.

فهو يصور هذا التطور بقوله(١) :

« إن الغرض من محاضراتى التى سألقيها عليكم هو درس اللسان العربى من الوجهة التاريخية أى من جهة نشأته وتكونه ، وأصول حروفه ، وابنيته ، وأشكال الجملة فيه والتغيرات التى وقعت فيه مع توالى الأزمان ، واستنتاج العوامل التى سببت خصائص اللسان العربى ، التى تميز بها فى أزهى عصوره ، يعنى فى خلال

(١) ص ٣ .

القرون الأولى بعد الهجرة » .

وعلى هذا الأساس يحدث عن تطور الحروف واختلاف نطق بعض الحروف الحالى عن نطقها فى الزمن القديم وهى ق ، ج ، ط ، ض ، ظ(١) ويشرح هذا الاختلاف بما لا يتسع له مجالنا هنا . .

ثم هو يبين علل تغييرات الصوت فيذكر من بينها مثلا ذوق العصر ومثال ذلك فى اللغة العربية أن بعض أهل القاهرة كان استحشن نطق القاف ، واستغلظه فأبدله بالهمزة وهذه العادة سادت بين أهل القاهرة الخاصة ثم سرت منها إلى بعض المدن الكبيرة كدمشق ، ثم إلى أصغر منها كالقدس الشريف فهذه أيضاً علة مهمة لتغير اللغات ، لكننا كثيراً ما لا يمكننا اثباتها ، وخاصة فى الأزمان السالفة ، التى لا نعرف كيف كان ذوق أهلها(٢) .

وهو يؤرخ الصيغ والعوامل ، وطرائق نظم الجملة ، ويبين تطورها ، ويستدل لذلك – وعن طريق البيان المعتمد على المقارنات الواسعة بين العربية وأخواتها الساميات يبين خصائص العربية ومزاياها التى تنفرد بها عن اخواتها المعروفات له فيكون بياناً ذا دليل . ثم يبين لذلك عن هذا الطريق أخطاء النحويين فى تفسيراتهم النحوية والصرفية ، فيقول مثلا(٣) :

وإن الزمخشرى ذكر أن الهمزة فى ماء وأمواء أبدلت من الهاء مستنداً فى حكمه على وجود الهاء فى مياه جمع ماء ، وهذا خلاف الحقيقة ، إذ أنا نستنتج من استعراض اللغات السامية الأخرى أن الصورة الأصلية لكلمة ماء كانت ماى أو قريبة منها ، وإن الهاء فى مياه وماثلها من الجموع زائدة ، ولو ألم الزمخشرى . باللغات السامية لسلم من الوقوع فى هذا الخطأ ، وكذلك يرى أن أكثر ضلالات النحويين واللغويين القدماء ، نشأ من جهلهم باللغات السامية ، على أن بعضها كان شائع الاستعمال فى زمانهم(٤) .

(١) ص ٩ (٢) ص ١٧ (٣) ص ٣٢ (٤) ص ٣٢

هذه ناحية منهجية أشرت إليها استطراداً لأبين الأساس الصحيح الذى يقيم مثل لهذا الأستاذ دراسته عليه وليت المقام يتسع لأحدثكم عن بعض دراساته التطورية العربية . . وبحسبنا تصوير المنهج الصحيح من ناحيته التطورية .

***

ولم تتم تلك الدراسة اللغوية الصحيحة ، فى اتجاهها التطورى بكلية الآداب إذا لم يتهيأ لها من المستشرقين من يتابعها من بعده ، ولم يتجه إليها أصحاب الدرس اللغوى الخاص .

وتجمعت دار العلوم فصارت كلية جامعية ودرست من علم اللغة ما درست على منهجه العلمى الحديث واتصل بالبيئة العلمية العربية من اتصل من مبعوثيها ومبعوثى غيرها وقرر كل أولئك من أصول التطور اللغوى ما قرروا ، لكن درس تطور العربية درساً تطبيقياً على هذه الأصول العامة لم يتم منه شىء يؤثر . . بل نسمع بعض المدارسين الذين اقتبسوا من مناهج الغرب ودراسته قدراً صالحاً يشكو صعوبة درس هذا التطور القديم للعربية ، ويقول : (١)

« وإذا كنا لانستطيع الوقوف على طبيعة تطور هذه الضوابط فى اللغة العربية : ولا على طريقة ذلك التطور لجهلنا بتاريخ اللغة نفسها ، ولقلة ما اكتشف حتى الآن من آثار قديمة ، تقدم لنا صوراً عن حالة اللغة يوم أن كانت مضطربة فى ألفاظها وفى معانيها ، وفى أساليبها ، وفى ضوابطها ، نقول : إذا كنا نجهل كل ذلك ، وإذا لم يكن لدينا من الأدلة المادية ما يساعدنا على معرفته فاننا نلجأ مرة أخرى إلى اللغة اللاتينية إلخ » .

والسيد الدكتور عون حين لا يجد السبيل الميسرة لهذا التطور العربى فى القديم

(١) الدكتور حسن عون ــ اللغة والنحو : ص ١٠٨ ط

لايزال يقدر أهمية التطور تقدير من تمثل المنهج اللغوى الصحيح تمثلا صادقاً ، فهو يأخذ على النحاة القدامى عدم تقديرهم للتطور فى غير موضع من كتابه (١) وهو يعانى شرح شىء من تطور اللغة فى العهد المعروف من تاريخها إلى اليوم .(٢)

ومن هنا يبدو أن العناية بالتطور فى البيئات الخاصة قد وجدت ، لما صحح منهج الدراسة اللغوية ، لكن هذه العناية لم تكف لإيجاد دراسة ذات قيمة لتطور العربية ، والتماس دلائل ذلك من البقايا التى خلفها التطور فى كيان العربية نفسها ، أو الجرأة على فرض خطوات ذلك التطور فرضاً وتكميل فهمها بظواهر وشواهد من حياة إخواتها الساميات الأخرى أو من متفرقات البقايا اللغوية التى احتفظ بها الجمع اللغوى ، وتناثرت فى المعجمات، أو الأمهات اللغوية شوارد بددا . ثم الاستعانة فى ذلك بمختلف المحاولات التى قام بها المستشرقون ، ورأينا منها شاهداً قريباً فى دراسة برجسترا سر للتطور النحوى فى مصر ، وتعريفه براجع من عمل قومه فى دراسة الساميات درساً منهجياً عميقاً .

***

على أننا رغم ذلك كله نجد محاولة جريئة تامة لشرح تطور العربية منذ عهدها الفطرى إلى يومها الحاضر ، فى توسع وجرأة قسمت ذلك التطور أدواراً ، وقسمت الأدوار حلقات ، كما وصفت تطور العربية المادى وتطورها الشكلى ، وبينت مسايرة هذا لذلك ، وتقابل أدوارهما وحلقاتهما ــ وأهم من ذلك كله أن الدراسة قد حققت الغرض العملى المطلوب من تصحيح المنهج اللغوى ، وتبيين وجهة سير العربية فى الحياة . . وعن طريق معرفة اتجاه تطور العربية أمكنها أن تساعد سير التطور ، وتعين العربية على متابعة نمائها متابعة لاتعد إلا الامتداد الطبيعى لما أراد لها أهلها ،

---

(١) أنظر صفحات ٨٧ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١٢٤ من كتاب اللغة والنحو .
(٢) ص ١٢٩ وما بعدها من المرجع نفسه .

والتحقيق العملى لما تمثلوه نظرياً ، وكانوا يتمونه لو ظلت لغتهم تأخذ طريقها فى بيئتها ولا نزعج عنها وتخرج منها .

وأحسب أن عرض هذا التطور هنا — ولو فى إجمال تام — يعطينا المثل العملى لما نرجوه من أثر جليل لإصلاح المنهج اللغوى ، ويفتح لنا الطريق السوى إلى معالجة مشكلات حياتنا اللغوية علاجاً أهدى بصيرة ، وأصح تشخيصاً ، وأدق تناولا .

ولئن لم يتسع الوقت للعرض الوافى لهذه المحاولة التطورية فإن المستكمل يستطيع الرجوع إليها فى مظنتها دون صعوبة . . ثم إذا لم نعقب هنا على هذه المحاولة بنقد أو تقدير لضيق الوقت أيضاً فإنا نرتقب لذلك فرصة أخرى مواتية ، غير آسفين على عدم وجودها الآن لأننا لا نريد من عرض هذه المحاولة إلا إكمال البرهان على عدم صحة المقررات التى أسلفنا نقدها ، فى تكوين العربية ، وفى استكمالها ، وفى كمالها . . على ما سمعتم . .

هذا إلى مافى هذا العرض العام لشرح التطور من تقديم العلاج والحل لأزمة العربية من حيث الوقوف على مسايرة الحياة والوفاء بحاجتها ، إذ سينتهى بيان التطور إلى نتيجة طيبة فى نماء العربية فعلا ، وزيادتها اشتقاقاً ووضعاً زيادة هى خير صنوف الزيادات وأكفأها للحاجة .

وهذه المحاولة لدرس التطور هى التى سبقت إشارتنا إلى ظهورها فى البيئات العامة رغم عزوف هذه البيئات عن فكرة التطور ، بل محاربتها لها .

والمحاولة التى كررنا الحديث عنها محاولة لبنانية الدم مصرية المظهر ، أخرجها السيد عبد الله العلايلى فى غير مناسبة ، وآخر ذلك كتابه مقدمة لدرس لغة العرب ، الذى طبعه السيد إلياس أنطون الياس بالمطبعة العصرية فى مصر سنة ١٩٣٨ هـ والسيد

العلايلى صاحب هذه المحاولة التطورية تطبيق عملى واسع لها فى وضع معجمه الذى سماه المعجم ، وجرب فيه هذا النماء المنشود للعربية من معرفة اتجاه تطورها ، وقد أخرج من هذا المعجم أربعة أجزاء .

ولئن لم يكن لهذه المحاولة صداها المظنون فى البيئات الخاصة بالدراسة العربية العليا ، ولا عند الأخصائيين المنفردين بالسلطة التشريعية العليا للغة العربية فإنا نعتقد أن عرضها ضرورى ، مهما يكن الرأى فيها والنقد لها لأنها على أى حال ، ورغم كل شىء — فتح للباب ، وتثبيت المنهج ، وتيسير لنماء العربية ذلك النماء الذى نرجوه لها ونوده بأى ثمن ، وأى جهد . . فإليكم هذه المحاولة الخيرة على أنها :

رأى فى تطور العربية

ولعلنا نتعجل فائدتها بتركيز الفكرة فيها تركيزاً يبرز صورتها . ويمثل أهدافها جلية فى إجمال ، نتولاها بعده بشىء من تفصيل يزيد ملامحها وضوحاً ، ويكشف عن قسماتها كشفاً يؤكد التعريف بها ، ولمن شاء التحقيق الأطول أن يرجع إلى ما كتب صاحبها فى « المقدمة » ، وهذا هو :

اجمال الرأى .

إن التقدم سنة طبيعية ، خضعت لها العربية فى كل شىء ، أصواتها ، وحروفها وكلمها ، وجملها ، وأساليبها ، وبيانها . . . الخ ، وقد تولى بالبيان تطورها اللغوى ، وأشار إلى تطورها البيانى .

وجعل التطور اللغوى تطوراً مادياً يخص بناء اللغة وموادها . . وتطوراً شكلياً يخص صور كلمها وسماه تطور اللهجة .

وجملة التطور المادى :

أن العربية بدأت أحادية ، وتطورت إلى الثنائية ، والثلاثية ، فالرباعية ، والخماسية والسداسية . . ومضت العربية فى ذلك على مذهب خاص ومعقول عربى لو أدركناه لا ستطعنا أن نجعل العربية تتابع نماءها . وتحقق ما اتجه إليه ارتقاؤها ؛ ولكنه توقف بخروج العرب من الجزيرة ، عند الفتح الإسلامى وتوزعهم فى الأنحاء . ثم تناول اللغويين للعربية تناولا طابعه الجمع فقط ، وفقدان النظرة العامة إلى اللغة ، والوقوف فى وجه كل اجتهاد ...

وهو يشرح التكون الارتقائى للعربية ، ويبين أدواره بياناً تطورياً : فيبين

الأدوار المختلفة له ، ويفصل الحلقات فى الدور الواحد ، ويربط بين هذه الأدوار التى يشرحها النشوئيون فى ارتقاء الحياة من دور حجرى ، وبرونزى ، وحديدى .. الخ . ويصف كل دور من الأدوار ، وكل حلقة من حلقات الدور ، ملتمساً ــ ما استطاع شواهد ذلك من متخلفات التطور . وما حفظت العربية من بقايا شـواهد عليه ، أو مفترضاً من ذلك ما يفترض ، متشبهاً بأصحاب العلم النشوئيين وآخذاً سمتهم فى إثبات مذهبهم وبيانه .

وأما التطور الشكلى :

فجملته : أن العربية كانت أولاً لغة صوتية تقوم على الحروف فى بنية كلها وفى أواخرها « وقد مرت فى أدوار مغرقة فى الصوتية ، تشهد لها شواهد ، ثم انتقلت إلى دور آخر فصارت لغة لفظية أى تقوم على الحركات فيما كانت تقوم فيه على الحروف من قبل . . ولم تتحرر من الصوتية تحرراً مطلقاً ، بل بقيت صوتية فى نواح غير قليلة على أنها وإن لم تصبح لفظية بكل المعنى فقد تركت قوانين أعدتها للتحرر على الإطلاق » .

ويبين هذين الدورين مثل بيانه لأدوار التطور المادى ، ويربط بين أزمان التطورين . ويجعل هذا التطور الشكلى مما تم فى حلقات الدور الثالث من أدوار التطور المادى . ويلتمس الشواهد والفروض على نحو ما أشرنا ، محاولا أن ينتهى إلى ربطه بالظواهر اللغوية فى سلم ارتقائى وتسلسل تصاعدى .

***

وهو لا يقف عند بيان هذا التطور لأنه السنة الطبيعية التى خضعت لها العربية ، وقضت بها طبائع الأشياء فهى حقيقة تعرف ، بل يمضى إلى ما وراء ذلك من اهتداء بهذا التطور فى دفع العربية اليوم إلى السير استئنافاً لتطورها الذى أوقفه خروجها من الجزيرة عند الفتح الإسلامى ، كما أشرنا إلى ذلك من قوله قريباً .

فهو يهتدى بهذا التطور إلى معرفة معقول العربى ووجهته فى السير بلغته ، أو سير الحياة بها ، وما كان ينتظر أن ينتهى إليه الأمر فى رقيها واستقرار أمرها . والتخلص من ظواهر الفوضى أو الاضطراب فى مادتها وصورتها . وبهذا المدى التطورى يرى أننا نستطيع رد الحياة إلى العربية ، ودفعها إلى استكمال ما عوقها الظروف عن استكماله فتقرر اليوم النتائج التى دلنا التطور على أنها كانت تتجه إلى تقريرها ، وتبسط رقعة الوضع أمام الواضع الجديد اليوم وبهذا تستبدل العربية بضمورها نماء ، وزيادة . على أنها فى تقدير الأستاذ العلايلى ستنمو نمواً داخلياً ذاتياً بمواد من كيانها لا بمعربات من غيرها ، ولا منحوتات مصطنعة من كلها .. الخ .

وإنك لتقدر من هذا الإجمال لفكرة التطور عند « السيد العلايلى » سعة الفكرة لما يجرى عليه الخلاف فى نماء العربية ، عند أصحاب الدراسة اللغوية ، أو السلطة اللغوية المجمعية .

وأنه يعرض فى فكرته عن تطور العربية حلولا لمسائل لغوية ونحوية قديمة ، لم تعرض هذا العرض العلمى الروح .. التطورى المنزع . فى الدراسة الشرقية للعربية .. وينتهى إلى نتائج بعيدة المدى .

وهى نتائج وقضايا جديرة بالبحث والتقدير ، والمناقشة والمقابلة . ولكننا لا نستطيع شيئاً من ذلك دون أن تكون الفكرة ، فى سعتها وعظيم دعواها بين يدى المصغين لتلك المناقشة والمقابلة لها ، والتقدير لنتائجها . . وهو ما حرت فى موقفى منه ، وما آخذ فيه وما أدع ، لأسباب متعددة . . . فهممت مراراً بأن أعرض جملة صالحة من فكرة السيد عن تطور العربية ، لأقيم عليها هذا التقدير والمناقشة ، ورغبنى فى هذا أن فكرة التطور اللغوى للعربية قد عرضها المستشرقون فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، منذ قرابة ثلاثين عاما ، وطبع ما كتبوه عنها . كما مارسها الجيل الثانى فى كلية الآداب

بجامعتى القاهرة والإسكندرية ، إلى حد ما ... ثم هيأ لها وحدث عنها درس علم اللغة فى كلية دار العلوم ، وفكرة التطور اللغوى مع ذلك كله ، وقبل ذلك كله ، سنة فطرية لغوية ، وهى وجهة الدرس اللغوى الجدير بالمستوى العقلى للدراسة اللغوية اليوم .

ومع كل هذا من حياة الفكرة التطورية اللغوية بمصر ، ومع أصالتها المنهجية ، ومع أنها تقدم حلولا للمشكلات الكبرى ، التى يتعثر فيها من يحاولون تنمية العربية ومع . . ومع . . إلى كثير مما يقال هنا ، فإن الإخصائيين الرسميين ، أصحاب السلطة التشريعية اللغوية العليا ، فى المجمع لم يعنوا بهذه الفكرة المنهجة الأصيلة الحيوية ، ولم نر فيما وقع لنا من آثارهم التى نشروها ، إلا هذا الذى وصفنا قريباً . من قول لهم عرضى فى التطور اللغوى ، لاينم عن شىء من التقدير لأهمية التطور فى المنهج اللغوى والحياة اللغوية ، والحلول التى يمكن أن تقدم لتحقيق استئناف العربية النماء والتجدد بل ان هؤلاء الرسميين لم يبد — مما رأينا لهم — أنهم قد وقفوا عند شىء من حياة هذه الفكرة فى مصر والشرق الأقرب نفسه ، مما قال المستشرقون فى المعاهد ، ومما قفى على آثارهم فيه أبناء هذه البلاد فى تلك المعاهد كذلك . ثم مما نشر أمثال السيد العلايلى عن هذه الفكرة ، فى كتابه « مقدمة لدرس لغة العرب ، وكيف نضع المعجم الجديد » ، وهو كما قلنا — مطبوع فى مصر منذ نحو عشرين عاماً كاملة — كما أن للسيد العلايلى كذلك كتاباً يسميه « دراسات على فنون العربية » ، يقول : أنه فرغ فيه لسبك ما فى كتابه « مقدمة لدرس لغة العرب ، وكيف نضع المعجم الجديد » بأسلوب قاعدى تعليمى . . . وقد جد الرجل فى نشر الفكرة التطورية جداً صادقاً ، بما أثار حولها من نشاط متصل .

وأكبر من ذلك أثراً فيما رغبنى فى التعرض لهذه الفكرة أن السيد عبد الله العلايلى إنما قال ما قال فى فكرة التطور ، بل جهد فى سبيلها ما جهد لينتهى منها

إلى الغاية التى يستبق إليها المجمعيون ، وهى وضع معجم للعربية ، يفى بحاجة الحياة اللغوية العصرية ، وقدحاول السيد العلايلى أن يقوم وحده بما تقوم به الجموع الحاشدة، فوضع المعجم ، وضعاً متجدداً نامياً ،لا وضعاً جامعاً حاشداً فقط ،وعمل على هذا النماء من السبل التى وجدها أهدى إليه وأجدى فيه . . . وهى وسائل النمـاء الداخلى الذاتى للعربية ، ومتابعة سيرها التطورى من حيث وقفت ، عند خروجها من الجزيرة العربية فاتحة مهاجرة — كما قدمنا —

وفى عمله هذا محـاولات لغوية فنية خطيرة الشأن ، كما فيها — مع ذلك — محاولات عملية ومادية لا تقل خطورة شأن عن المحاولات الفنية اللغوية . . مهما يكن نصيب هذه المحاولات من النجاح العملى ، والذى لا نعرض للحديث عن شىء منه هنا.

وكل أولئك لم يبد — فيما رأينا — من آثار الإخصائيين اللغويين الرسميين من المجمعيين ، أنهم بالوه أو عرجوا عليه ، أو أشاروا إلى شىء منه ، برضا أو سخط ، وتصحيح أو إبطال — وهو ما يدعونى إلى متابعة اللفت ، بل اللفت القوى لفـكرة التطور اللغوى فى ذاتها . . ولهذا الجهد التطورى الجليل المناضل للسيد العلايلى — مهما يكن الرأى فيه وفى نتائجه .

وكدت لذلك أقف لألخص معالم الفـكرة التطورية . فأجعلها تـكملة ضرورية لهذه المحاضرات ، بعد الذى أشرت إليه ، من حياة فـكرة التطور اللغوى فى مصر الحديثة .. لـكنى سألت نفسى .

ترى أى أثر ترجو لأن نلخص بالعربية ، لقراء العربية كتاباً صدر بالعربية ، وطبع ونشر فى أمهات المدن العربية . من أقطار العروبة !! ولم ينشر فقط ، بل اتبع بجهود لا فتة قارعة : من كتاب يقرر الـكتاب الأول ، ويسبك قواعده . . . ومن عمل تطبيقى معجمى ، صدرت منه أجزاء ، سارت فى الشرق العربى ، معلنة عن نفسها

طالبة رأى أولى الرأى فيها ، مهداة إليهم ، وموزعة بينهم . فإذا كان ذلك كله لم يلفت — رسمياً — إلى التطور اللغوى وقضيته . . فهل ترى ذلك السواد الذى نجريه فى بياض بضع صفحات ، فى نهاية هذه المحاضرات ينتهى إلى شىء من الإغراء بأهمية الفكرة ، أو اللفت إلى ضرورة العناية بها ؟! لا أظن شيئاً من ذلك يكون .

هذا .. وإن فى تلخيص كتاب عربى لأصحاب الدراسة العربية العليا لإغراء لهم بالكسل البليد ، الذى كان ـ فيما اعتقدت ـ السبب الأكبر فى عدم الالتفات إلى تلك الفكرة التطورية ، شيئاً من الالتفات الملائم قيمتها المنهجية .. ثم لجهود الرجل الذى بذل فيها ما وصفنا .

وهكذا : بينت لمستمعى هذه المحاضرات ، من تفاصيل الجهد المبذول فى بيان التطور اللغوى ما بينت ، فى غير ضنانة ولا تقصير . ولم أر أن تتضمن هذه المحاضرات تلخيص فكرة يحتفظ بها كتاب عربى ، يجدونه فى مكتباتهم العامة ، ودور الوراقة التجارية ، ويستطيعون الرجوع إليه أن أحبوا أن يعرفوا من هذه الفكرة شيئاً !! أو على الأقل إن دفعهم الحرص على اجتياز الامتحان النظامى فى معهد الدراسات العربية إلى أن يلموا من هذه الفكرة بشىء ، يتزودون به لهذه اللحظة الرسمية .. !!

وإنى إذا أترك الوصف التفصيلى لتلك الفكرة فى تطور العربية لأرجو أن يعمل الزمن عمله فى الإغراء بهذا الدرس اللغوى التطورى ، والانتفاع فيه بالدراسات اللغوية لغير العرب فى العربية ، ثم فى غيرها من سائر اللغات . وتلك الدراسات التى تتكامل ويؤيد بعضها بعضاً فى شرح نواميس ذلك التطور اللغوى ووصف أدواره وخطواته .

***

وبأخرة ، أكتفى بما شرحت من هذه الفكرة مشافهة ، فى المحاضرات ، وبالتالى

أترك هنا كل تعقيب عليها ، ومناقشة فيها ، وفي أصلها ، وتقدير صاحبها لها ، ما دام القارىء لا يجد هنا الأساس المحدود لما يشار إليه في هذا كله . . ولكني مع ذلك أشير - في إجمال - إلى النتائج التي رتبها السيد العلايلي على ما قال إنه معقول العربي ووجهته في السير بلغته ، والتي يرى أن نتابع نحن اليوم تحقيقها ؛ لنصل بالعربية إلى الاستقرار ، والاستكمال ، والتخلص من ظواهر الفوضى والاضطراب في مادتها وصورتها . . وبمعرفة هذا المعقول العربي نستطيع رد الحياة النامية إلى العربية : وبسط رقعة الوضع أمام الواضع اليوم فتستبدل العربية بضمورها نماء ، وزيادة داخلية ذاتية ، من كيانها ومادتها . لا بتعريب من كلمات غيرها ، ولا بنحت مصطنع من كلماتها وإنها لنايات نسمع في سبيلها قول كل قائل ، ورأى كل من يرتئي . وتلك النتائج هي:

(ا) اختلاف أبواب الفعل الثلاثي مثل من عدم الاستقرار . . . ويظن أن العربي قصد طرد الأفعال المضارعة على الكسر دون تخلف ، فالماضي يكون على وزن فعل - بفتح العين مطلقاً ، إلا لحاجة معنوية فينقل قياساً إلى بابي طرب وكرم . . وهذا في غير الحلقي فيكون من باب فتح مطلقاً ، وعليه فكل ماض بالفتح مطلقاً ، وكل مضارع بالكسر مطلقاً ، وكل حلقي بفتحتها مطلقاً . وكل اشتقاق مستقبل يلزم هذا السبيل وينطرد عليه .

على أنه لا يخرق بهذا حرمة النص ، بل يتقيد بما مضت به المعاجم إذا كان محل وفاق ، فإن اختلفت فيه فالراجح الكسر ص ١٦٨ ، ١٩٢ . من مقدمة لدرس لغة العرب .

(ب) المصادر من الثلاثي بقيت قلقة كذلك وكذلك الجموع لم تستقر إلا في قلة من الكلمات . غير أن العربي أخذ بصورة جدية لإقرارها ص ١٩٤ من المقدمة .

(هـ) لم تتحدد الصيغة دلالة على اطراد ، فتحمل الكلمة معنيين أو معنى مؤلفاً مما تفيده الصيغة والمادة التي منها الاشتقاق .. على أن العربية مع كل ما ترى فيها من فوضى هذه الناحية لا ينكر أنها أخذت فى سيطرة الاشتقاق وغلبته بهذا النحو .. وبقاء الموازين على فوضاها لا يتناسب مع المفاهيم العلمية الدقيقة ، التى تضطرنا لأن نجعل دلالة لازمة أبداً للهيئة الميزانية .

ومن ثم لا يكون عناء الوضع كبيراً ، كما ترتسم للميزان أيضاً صورة عند السامع ، تكون على مقدار من المعنى ، فعلى الواضع الجديد أن يتوفر على تخصيص الموازين بما يقارب أن يكون جامعا لشتى المشتقات عليها .

***

تلك مجملات مثيرة فقط ، ولتفصيلها ودقتها مجال تولاه الرجل فى معاودة وتكرار ، ولا سبيل لشىء من ذلك هنا ، ولا نحن نورده على أنه نتيجة نهائية لا نقص فيها ولا رد .. كلا .. بل نورده شاهداً على أن محاولة فهم تطور العربية اللغوى تنتهى بالباحثين إلى نتائج بعيدة وهامة .. وأنه لا سبيل إلى رد الحياة على العربية ، وتيسير النماء الحى لها إلا إذا عرف كيف دبت الحياة فى هذه العربية .. وكيف سارت الحياة بها لنعرف من ذلك كيف تتابع سيرها فى هذه الحياة .

والآن . .

إلام انتهينا ؟ وما الوحدة التى التقت فيها هذه المحاضرات القليلة ، فى ذلك المدى القصير من الأيام ؟

وجوابا عن هذا نقول !

١ — عرضنا مشكلات حياتنا اللغوية وبينا مدى خطرها . . وآثرنا فى تشخيصها الطريقة العملية الإيجابية من التحليل والفحص . . ورغبنا صادقين فى الانتفاع بتشخيص من تصدى لهذا العلاج ، ولا سيما الاخصائيون الرسميون ، فعرفنا ما عندهم .

٢ — وفى اهتمام واجب بالمنهج وتصحيحه عرضنا لنشأة اللغة ، واستكمالها ، وكلما فسمعنا فيها فقرات قديمة نقدناها وخلينا المجال منها . وأبدينا التحلية والتصحيح المرجو لهذا المنهج ؛ وأهم ما فى ذلك تقرير التطور اللغوى العربية ، فعرضنا لحياة فكرة التطور عند القدماء والمحدثين .. وبدا من ذلك أن قضية التطور تحتاج إلى عناية كبرى ، لم تمنح شيئا منها فى البيئات الرسمية ، وإن كانت لم تحرم منها فى البيئات الدراسية والبيئات الخارجية ..

٣ — تكامل من هذا كله الاتجاه الصحيح إلى الخطة السليمة ، والمنهج المحرر لنماء اللغة العربية ، وتخليصها من الضمور الذى أقعدها ويقعدها عن الوفاء بحاجة الحياة .. وهو منهج أساسه التطور .

٤ — وإلى هنا يمكن القول بأن الناحية النظرية فى بحث « نماء العربية » قد وضع لها أساس لا بأس به فى هذه المحاضرات ، على قلتها ، وضيق وقتها .

٥ — على أنا نسرف فى التفاؤل إذا ظننا أن هذا القدر النظرى يمكن أن تبنى عليه خطة إيجابية عملية ، سريعة يتفق عليها فى قضية نماء العربية .. فإنها أجل من ذلك وأدق .. والحديث عندنا فيها منتشر ، متفوق لا منهج له .

وقد اتضح مما أسلفنا بيانه فى وفاء ووضوح أن تلك الخطة لا تسلم ولا تكمل إلا بدراسة لغوية صحيحة لتطور العربية ، وكلما عمقت هذه الدراسة اتضحت مسالك النماء اللغوى ، وتهيأت الجرأة اللازمة فى تقرير ما يتقرر فى هذا الشأن ، على نحو ما رأينا فى نتائج درس ذلك التطور عند من عنى به .


فى الحق أن كل ما نرجو من أثر لهذه المحاضرات فى مشكلة نماء العربية ، إنما هو قوة اللفت بل الدفع إلى الإيمان بتصحيح المنهج اللغوى ، ثم إلى النشاط الجاد فى درس التطور اللغوى ، درساً تجند له القوى .

وإن يكن هذا فى حساب المقدرين بالكم والحجم يبدو يسيراً أو هيناً فإنه فى حساب المقدرين الكيف المكبرين للحقائق يبدو غير يسير ولا هين .

وكلما هدى إلى الإيمان بالمنهج فرد واحد توفر جهد يضيع بدداً ، وعمل يذهب سدى فى غير وجهه عندما نختلف ، ونتناقش ، ونقرر على غير أساس من منهج محرر ..

والأمل قوى فى أن تكون دعوة هذه المحاضرات إلى الإيمان بالمنهج قادرة على كسب أفراد غير قليلين إن شاء الله ؟

فهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للـكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٦٩ / ٨٧

ISBN ٩٧٧-٠١-١٣١٤-X

مشكلات الحياة اللغوية فى المجتمعات التى تتكلم العربية هى ـ فى تقديرى ـ أبعد مشكلاتها غوراً وأعنفها أثراً .. فإنها تصيب هذه الأمم العربية جميعا بظاهرة « الازدواج اللغوى » التى تجعلها تحيا ، وتشعر وتتعامل ، وتتواصل بلغة يومية ، مرنة ، نامية ، متطورة مطاوعة .. ثم هى تتعلم ، وتتدين ، وتحكم ، بلغة مكتوبة ، محدودة ، غير نامية .. لا تطوع بها الألسنة .. تتعثر فيها الأقلام .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب